

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الجزء الأول

اختيار وجمع
د. يحيى مصري

تحقيق مصطفى الزايد

blx

تصميم مطبوعات ورقية والكرونية

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الجزء الأول

اختيار وجمع
دكتور محمد مصطفى

تحقيق مصطفى الزايد

جميع الحقوق محفوظة للناسر

اسم الكتاب: لآلى التفسير

المؤلف: د. يحيى مصري

القطع: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٦٩

السمة: نسخة إلكترونية

إصدار: المؤلف

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
الجزء الأول
اختيار وجمع
د. يحيى مصري
تحقيق مصطفى الزايد

مقدمة المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء، وجعله معجزاً لا تنقضي عجائبه، ويسر لهذه الأمة علماء يشرحون معاني ألفاظه ويوضحون دلالاتها، ويفسرون آياته ويبينون أوامره ونواهيه وحلاله وحرامه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي أنزل هذا القرآن على قلبه الطاهر، ففاض بالنور والهدى، لينتشر الإسلام في العالم بفضل الله، ثم بصره ﷺ واحتماله الأذى وثباته على الحق، وجهده وجهاده هو ومن معه ومن جاء بعدهم. ونسأل الله أن يجعلنا من الآخذين بكتابه العظيم، المتبعين سنة نبيه الكريم ﷺ مخلصين لله تعالى هادين مهدين. وبعد...

فقد يسر الله لي أن أتسلم من أستاذي د. يحيى مصري مخطوط هذا الكتاب، الذي تناول أهم وأخطر جانب في الدين، وهو تفسير كلام الله عز وجل. والتصدي لهذا الأمر ليس بالسهل، لأنه ينقل عن الله تعالى ويشرح لعباده مغازي كلامه، وقد قال الإمام الشعراوي، رحمه الله: «ومن منا يجروء على تفسير كلام الله تعالى؟! وإنما نحن ندور حول الآيات في محاولة لفهم ما أمكن من معانيها ودلالاتها، أما تأويله فإنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾. وعليه فإن المفسر يجب أن يستند إلى قاعدة علمية شاملة في اللغة العربية وأساليب بيانها ومخزونها المعجمي واختلاف لغات العرب، وفي أصول الدين، ويقرأ ما كتبه عدد من المفسرين، ليستطيع

الإحاطة بما أمكن من شروحهم، وإلا فإنه يَضِلُّ ويُضِلُّ، وما تصدى لهذا الأمر
 بغير علم إلا كافر أو منافق أو عدو لله يسعى إلى تحريف شرعه وإضلال
 المسلمين، وتشهد بهذا محاولات عدد من المعاصرين الذين تجرّؤوا على ذلك بلا
 أدنى علم في مجال التفسير أو ما يرتبط به من علوم يحتاج إليها المفسر بالضرورة،
 ففسروا بما تلي أهواؤهم المنحرفة وما توسوس لهم به الشياطين، فضلوا وأضلوا.
 وصاحب الكتاب لغوي مشهود له في مجاله، أضاف إلى علمه اشتغالا بالدعوة
 إلى الله تعالى، وكان لإمامته في أحد المساجد بأمريكا وتوليه الخطابة فيه دافع إلى
 التعمق في العلم الشرعي، إذ كان الناس يسألونه في الأحكام، وفي التفسير،
 فوسع قراءاته المبنية على خوف من الله تعالى وحرص على ألا يفتح باب ضلالة
 أو يسد باب هدى، فلم يتصدّ لتفسير القرآن الكريم، وإنما راح يغوص في بحار
 العلماء المفسرين، وينتقي الآلئ المميزة التي يجدها فيضعها في صندوق، حتى
 اجتمع له منها هذا الكتاب الذي لم يسر فيه على منهج ترتيبى شمولي، وإنما كان
 منهجه انتقائياً، وقد أكرمني الله تعالى بأن أسهم في خدمة دينه وكتابه فأتولى تحقيق
 هذا الكتاب وإعداده وتولي أمر نشره، بتفويض من صاحبه أستاذي د. يحيى
 مصري، حفظه الله ونفع به الإسلام والمسلمين، الذي أراد أن يكون هذا الكتاب
 متاحاً لكل القراء مجاناً، فاختر نشره إلكترونياً ليكون في متناول الجميع.

مصطفى زايد

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، وأصلي وأسلم على نبينا وسيدنا محمد، صلوات من الأزل إلى الأبد، مستمرة، لا تُردّ ولا تُعدّ ولا تُحْد... وأدعو الله، سبحانه، أن يعلمنا ويُفهمنا ويفتح علينا، ويشرح صدورنا، ويتقبل منا، ويجعل لنا في قراءة هذا الكتاب ثواباً جزيلاً في صحائف أعمالنا... وجزى الله عنا سيدنا محمداً بما هو أهله، وجزى الله علماءنا ومشايخنا وأساتيدنا خير الجزاء، داعين دائماً لوالدينا بالرحمة كما ربونا صغاراً، ولأزواجنا وأولادنا وذرياتنا بالصلاح والهدى، مذكّرين بعضنا بذكر الله، سبحانه وتعالى؛ حتى تطمئن قلوبنا، وبالصلاة والسلام على الرحمة المهداة؛ المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وسيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه العبد الفقير الذليل لربه الغني العزيز: يحيى بن بشير مصري الحلبي

يوم وقفة عرفات من عام ١٤٣١ هـ الموافقة لسنة ٢٠١٠ م

مَهَيِّدٌ

لقد أنعم الله عز وجل بالأجر العظيم لمن ناجى ربه، وتلا كتابه حق تلاوته، وقام بحقوقه، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۚ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١)

وقد حث المصطفى ﷺ على المداومة على تلاوة كتاب الله عز وجل، حيث قال: ﴿اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ﴾^(٢).

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، وهو يُتَعَتَّعُ فيه، وهو عليه شاق، له أجران﴾^(٣).

قال الإمام القرطبي: «قال علماءنا رحمهم الله: التمتع في القرآن هو التردد فيه عيًّا وصعوبة، هذا - والله أعلم - عند التعلم، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة، ومن حيث المشقة. ودرجة الماهر فوق ذلك كله؛ لأنه قد كان مُتَعَتَّعًا عليه، ثم ترقى عند ذلك إلى أن شُبِّهَ بالملائكة».

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يقرأ القرآن مَثَلُ الْأَثْرَجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي

^١ سورة فاطر: ٣٠.

^٢ صحيح مسلم، برقم ٨٠٤.

^٣ متفق عليه.

لا يقرأ القرآن مثل التَّمَرَةِ، لا رِيحَ لها، وطَعْمُهَا حُلْوٌ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وطَعْمُهَا مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، ليس لها رِيحٌ، وطَعْمُهَا مُرٌّ^٤. ثم تكرر ربنا الكريم فجعل على قراءة القرآن الكريم ثواباً جزيلاً، بيّنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: ﴿مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ﴾^(٥).

تميم الزعبي، ص: ٢ ينبغي لتالي كتاب الله عز وجل أن يتمثل جملةً من الآداب والأخلاق، وفي ما يلي بيانها مختصرةً:

* ينبغي لقارئ القرآن أن يلتزم أكمل الأحوال وأكرم الشرائع، مقتفياً أثر القرآن: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾^(٥)
عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بِلَيْلِهِ والناس نائمون، وبِنَهَارِهِ إذا الناس مُفْطِرُونَ، وبِحُزْنِهِ إذا الناس يفرحون، وبِبُكَائِهِ إذا الناس يضحكون، وبِصَمْتِهِ إذا الناس يُخَوِّضُونَ، وبِخُشُوعِهِ إذا الناس يَحْتَأَلُونَ».

وقال الفضيل بن عياض: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو؛ تعظيماً لحق القرآن».

^٤ صحيح مسلم، برقم ٧٩٧.

^٥ سورة البقرة: ١٢١.

وقال الإمام الأجرى عن حامل القرآن: «إنه يحزن بعلم، ويبكي بعلم، ويصبر بعلم، ويصلي بعلم، ويزكي بعلم، ويتصدق بعلم، ويصوم بعلم، ويحج بعلم، ويجاهد بعلم، ويكتسب بعلم، وينفق بعلم، وينبسط بالأمور بعلم، وينقبض عنها بعلم...».

* ينبغي لتالي القرآن أن يُكثِر من تلاوته، وكان للسلف عادات مختلفة في ختم كتاب الله عز وجل، فمنهم من يختم كل شهرين ختمة، وبعضهم: كل شهر ختمة، وبعضهم كل عشر ليال ختمة، وبعضهم كل ثمان ختمة، وعند الأكثرين: في كل سبع ليال ختمة، وعن كثيرين في كل ثلاث ختمة، والأمر بعد ذلك يعود للطاقة والوسع، وحصول التدبر، وأما الإكثار من القراءة على سبيل العجلة وعدم الفهم، فهو مذموم غير محمود.

* أن يحافظ على تلاوته بالليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾^(٦)، وفُضِّلَت صلاة الليل وقراءتها؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون من الرياء، وغيره من محبطات الأعمال.

^٦ سورة المزمل: ٦.

- * ينبغي لقارئ القرآن أن يستاك قبل القراءة بعود أراك أو نحوه.
- * يستحب أن تكون القراءة في موضع نظيف مختار؛ احتراماً لجناب القرآن العظيم، وأفضلها المسجد.
- * يستحب لقارئ القرآن في غير الصلاة أن يتوجه للقبلة، ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار، مُطَرِّقاً رأسه.
- * وينبغي لقارئ القرآن أن يقرأ القرآن بخشوع وتدبر، فإن التدبر من أجله أنزل القرآن، وعن طريقه يحصل الفهم والانتفاع به، فإن التدبر هو أشرف الأعمال، وأوضحها سبيلاً لمعرفة هدى الله ومراضيه، وقد نزل للتدبر آياته، لا لِنَهْجَرِهَا، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٨). والتدبر عند أهل اللغة: هو التفكير، ولكن مادة الكلمة تدور حول أواخر الأمور، وعواقبها وأدبارها، فالتدبر: هو النظر في عواقب الأمور، وما تؤول إليه، ومن هذا نستطيع أن نفهم: أن التدبر: هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم، ومَرَامِيهِ البعيدة». ومن التدبر قراءة ما اخترت لكم من لآلئ تفسير كلام الله، عز وجل، داعياً ربي السميع القريب المجيب أن ينفعنا وإياكم به، ويُجزل لنا وإياكم المثوبة.

^٧ سورة محمد: ٢٤.^٨ سورة ص: ٢٩.

وقد كان السلف من أخشع الناس حين استماعهم لكتاب الله عز وجل، وعند تلاوتهم له، فهذا زُرارة ابن أبي أوفى التابعي الجليل، أمَّهُم في صلاة الفجر، فقرأ حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٩)، خَرَّ مَيِّتًا، قال بهز، وهو الراوي: «وكنْتُ في مَنْ حَمَلَهُ».

ولذلك كان السلف يستحبون ترديد الآية للتدبر، فهذا النبي الكريم ﷺ - كما روى عنه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه - يقوم بآية واحدة ليلة حتى أصبح: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١٠).

ومن آثار القراءة الخاشعة المتدبرة البكاء من خشية الله عز وجل، وهو صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾^(١١). ورؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه «صلى بالجماعة الصُّبْحَ، فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دُمُوعُهُ على تَرْقُوتِهِ».

* ينبغي لقارئ القرآن أن يقرأه بتؤدة وترتيل لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(١٢). ولذلك ينهى عن القراءة السريعة جدًا، فإذا مرَّ بآية رحمة سأل الله عز وجل من فضله، وإذا مرَّ بآية عذاب استعاذ بالله من الشرِّ أو من العذاب، أو يقول: «اللهم إني أسألك العافية، أو المعافاة من كل مكروه».

^٩ سورة المدثر: ٨، ٩.

^{١٠} سورة المائدة: ١١٨.

^{١١} سورة الإسراء: ١٠٩.

^{١٢} سورة المزمل: ٤.

* ينبغي لقارئ القرآن أن يحترم القرآن مطلقاً، فيتجنب اللّغط، وهو اختلاط الأصوات، والضّحك والعبث حال القراءة إلا لكلامٍ يُضطر إليه.

* يُستحبُّ لقارئ القرآن أن يُحسِّن صوته بالقراءة؛ لقول النبي ﷺ: ﴿رَيْنُوا القرآن بأصواتكم﴾^(١٣)، ويستحب حينئذ للمستمع الإنصات إلى القارئ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١٤).

^{١٣} المستدرك، للحاكم، برقم ٢١٢٥.

^{١٤} سورة الأعراف: ٢٠٤.

الله جل جلاله

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١٥).

قال الإمام فخر الدين الرازي: «قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول: **الفصل الأول:** روى أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من قرأ سورة قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن، وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطي من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأعطى من الأجر مثل مئة شهيد﴾، وروي أنه ﴿كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام، إذا أقبل أبو ذر الغفاري، فقال جبريل: هذا أبو ذر قد أقبل، فقال عليه الصلاة والسلام: أو تعرفونه؟ قال: هو أشهر عندنا منه عندكم، فقال عليه الصلاة والسلام: بماذا نال هذه الفضيلة؟ قال لصغره في نفسه وكثرة قراءته ﴿قل هو الله أحد﴾، وروي أنس قال: ﴿كنا في تبوك فطلعت الشمس ما لها شعاع وضياء، وما رأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك، فعجب كلنا، فنزل جبريل وقال: إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية، فهل لك أن تصلي عليه؟ ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه، فصلى هو وأصحابه عليه، ثم

^{١٥} سورة الإخلاص: ١.

قال: بم بلغ ما بلغ؟ فقال جبريل: كان يجب سورة الإخلاص ﷻ، وروى: ﴿أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَسَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو وَيَقُولُ: أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ يَا أَحَدَ يَا صَمْدَ يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: غُفِرَ لَكَ غُفْرَانٌ غُفِرَ لَكَ غُفْرَانٌ لَكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﷻ، وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: ﴿جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَشَكَا إِلَيْهِ الْفَقْرَ، فَقَالَ: إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ إِنَّ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ فَسَلِّمْ عَلَى نَفْسِكَ، وَاقْرَأْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَأَدْرَأَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقًا حَتَّى أَفَاضَ عَلَى جِيرَانِهِ ﷻ، وَعَنْ أَنَسٍ: ﴿أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَقْرَأُ فِي جَمِيعِ صَلَاتِهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَسَأَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحْبَبُهَا، فَقَالَ: حَبِّكَ إِيَّاهَا يَدْخُلُكَ الْجَنَّةُ ﷻ، وَقِيلَ مِنْ قَرَأَهَا فِي الْمَنَامِ: أُعْطِيَ التَّوْحِيدَ وَقِلَّةَ الْعِيَالِ وَكَثْرَةَ الذِّكْرِ لِلَّهِ، وَكَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ.

الفصل الثانى: فى سبب نزولها، وفيه وجوه: **الأول:** أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحّاك: ﴿إِنَّ الْمَشْرِكِينَ أَرْسَلُوا عَامِرَ بْنَ الطَّفِيلِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: شَقِيقَتُ عَصَانَا وَسَبَبَتْ آلِهَتَنَا، وَخَالَفَتْ دِينَ آبَائِكَ، فَإِنْ كُنْتَ فَقِيرًا أَغْنِيَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ مَجْنُونًا دَاوِينَاكَ، وَإِنْ هَوَيْتَ امْرَأَةً زَوَّجْنَاكَهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَسْتُ بِفَقِيرٍ، وَلَا مَجْنُونٍ، وَلَا هَوَيْتَ امْرَأَةً، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ أُدْعُوكُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَى عِبَادَتِهِ. فَأَرْسَلُوهُ ثَانِيَةً وَقَالُوا: قُلْ لَهُ بَيْنَ لَنَا جِنْسٍ مَعْبُودِكَ، أَمْ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ، فَقَالُوا لَهُ: ثَلَاثُمِئَةٌ وَسِتُّونَ

صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۖ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾^(١٦)، فأرسلوه أخرى، وقالوا: بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١٧).

الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود، روى عكرمة عن ابن عباس: ﴿أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه، وقال: اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما تلاه عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١٨). **والثالث:** أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال: ﴿قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك؛ أמן زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا:

^{١٦} سورة الصافات: ١-٤.

^{١٧} الأعراف: ٥٤.

^{١٨} سورة الأنعام: ٩١.

زدنا، فنزل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، يريد نظيراً من خلقه.

الفصل الثالث: في أساميها، أعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه، فأحدها: سورة التفريد، وثانيها: سورة التجريد، وثالثها: سورة التوحيد، ورابعها: سورة الإخلاص، لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفات الله عز وجل التي هي صفات الجلال، ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار، ولأن ما قبله خلص في ذم أبي لهب، فكان جزاء من قرأه ألا يجمع بينه وبين أبي لهب. وخامسها: سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا، وعن النار في الآخرة. وسادسها: سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله، ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه، فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة. وسابعها: سورة النسبة، لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال: أنسب لنا ربك، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم: ﴿يا أخا بني سليم استوص بنسبة الله خيراً﴾، وهو من لطيف المباني، لأنهم لما قالوا: أنسب لنا ربك، فقال: نسبة الله هذا، والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها. وثامنها: سورة المعرفة، لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجلاً صلى فقراً:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال النبي ﷺ: إن هذا عبد عرف ربه، فسميت سورة المعرفة لذلك. وتاسعها: سورة الجمل، قال ﷺ: ﴿إن الله جميل يحب الجمال، فسألوه عن ذلك فقال: أحد صمد لم يلد ولم يولد﴾ لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. وعاشرها: سورة المقشقشة، يقال: تقشيش المريض مما به، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾^(١٩). الحادي عشر: المعودة، روي أنه ﷺ دخل على عثمان بن مظعون فعوده بها وباللتين بعدها، ثم قال: ﴿تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها﴾. والثاني عشر: سورة الصمد، لأنها مختصة بذكره تعالى. والثالث عشر: سورة الأساس، قال ﷺ: ﴿أسست السماوات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾﴾، ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السماوات والأرض بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَاذُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾^(٢٠) فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء، وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢١). الرابع عشر: سورة المانعة، روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبى ﷺ حين عرج به: «أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي

١٩ التوبة: ١٠

٢٠ سورة مريم: ٩٠، ٩١.

٢١ سورة الأنبياء: ٢٢.

المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران». **الخامس عشر:** سورة المحضر، لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت. **السادس عشر:** المنفرة، لأن الشيطان ينفر عند قراءتها. **السابع عشر:** البراءة، لأنه روي أنه ﷺ رأى رجلاً يقرأ هذه السورة، فقال: أما هذا فقد برئ من الشرك، وقال ﷺ: من قرأ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مئة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار. **الثامن عشر:** سورة المذكرة، لأنها تذكر العبد خالص التوحيد، فقراءة السورة كالوسمة تذكر ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه. **التاسع عشر:** سورة النور، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢٢)، فهو المنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك. وقال ﷺ: ﴿إن لكل شيء نوراً، ونور القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾﴾، ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الخدقة، فصارت السورة للقرآن كالخدقة للإنسان. **العشرون:** سورة الأمان، قال ﷺ في الحديث القدسي: ﴿إذا قال العبد: «لا إله إلا الله» دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي﴾.

الفصل الرابع: في فضائل هذه السورة، وهي من وجوه: **الأول:** اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة

معادلة لثالث القرآن، وأما سورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(٢٣) فهي معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك، وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح، فالأقسام أربعة، وسورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسامي، فهما المقشقتان والمبرئتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله، أو من حيث إن: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به. **الوجه الثاني:** هو أن ليلة القدر، لكونها صدقاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر، فالقرآن كله صدقٌ والدرُّ هو قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا جرم أن حصلت لها هذه الفضيلة. **الوجه الثالث:** أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة، فكانت هذه السورة أعظم السور، فإن قيل: فصفت الله

^{٢٣} سورة الكافرون: ١.

أيضاً مذكورة في سائر السور، قلنا: لكن هذه السورة لها خاصية؛ وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول، فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب، فلا جرم أن امتازت على سائر السور بهذه الفضائل.

ولنرجع الآن إلى التفسير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه، ولا كان القبر سجنًا على المؤمن؛ لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريد بها الهوى والعقل، فصارت جنة مطلقة، وبيان ما قلنا: أن العقل يريد أميناً تودع عنده الحسنات، والشهوة تريد غنياً يطلب منه المستلذات، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غني، فإنه ينشط للانتجاع إليه، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية، والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المترتبة، فلما عرفاه كما أراداه عالماً وغنياً تعلقا بذيله، فقال العقل: لا أشكر أحداً سواك، وقالت الشهوة: لا أسأل أحداً إلا إياك، ثم جاءت الشبهة فقالت: يا عقل! كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً؟ ويا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر؟ فبقي العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز

بجوهره اليقين، فكأن الحق سبحانه قال: كيف أنغص على عبدي لذة الاشتغال بخدمتي وشكري، فبعث الله رسوله ﷺ وقال: لا تقله من عند نفسك، بل قل هو الذي عرفته صادقاً يقول لي: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، فعرفك الوجدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل، وتحقيقه أن المطالب على قسمين: قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع، وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته؛ كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل والسمع معاً، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئي إلى غيرهما، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوجدانية في تفسير قوله تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(٢٤).

المسألة الثانية: اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» من «قل»، وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ «قل» في سورة: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ»^(٢٥)، وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، فالقراءة المشهورة: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وقرأ أبي وابن مسعود. بغير «قل»؛ هكذا: «هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وقرأ النبي ﷺ، بدون «قل هو» هكذا: «اللَّهُ أَحَدٌ» ﷻ «اللَّهُ الصَّمَدُ»، فمن أثبت «قل» قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام.

^{٢٤} سورة الأنبياء: ٢٢.

^{٢٥} سورة المسد: ١.

المسألة الثالثة: اعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهاً: أحدها: أن «هو» كناية عن اسم الله، فيكون قوله: الله مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ، ويجوز في قوله: «أَحَدٌ» ما يجوز في قولك: زيد أخوك قائم. **والثاني:** أن «هو» كناية عن الشأن، وعلى هذا التقرير يكون اسم الله مرتفعاً بالابتداء، و«أحد» خبره، والجملة تكون خبراً عن «هو»، والتقدير «الشأن»، والحديث: «هو أن الله أحد»، ونظيره قوله: «فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا»^(٢٦) إلا أن «هي» جاءت على التأنيث، لأن في التفسير: اسماً مؤنثاً، وعلى هذا جاء: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ»^(٢٧)، أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة، كقوله: «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا»^(٢٨)، **والثالث:** قال الزجاج: تقدير هذه الآية أن هذا الذي سألتكم عنه هو الله أحد.

المسألة الرابعة: في «أحد» وجهان: أحدهما: أنه بمعنى واحد، قال الخليل: يجوز أن يقال: أحد... اثنان... وأصل «أحد»: «وحد» إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف، وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة والمكسورة، كقولهم: وجوه وأجوه وسادة وأسادة. **والوجه الثاني:** أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى؛ لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد أي فرد به، بل «أحد» صفة من صفات الله

^{٢٦} سورة الأنبياء: ٩٧.

^{٢٧} سورة الحج: ٤٦.

^{٢٨} سورة طه: ٧٤.

تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء. ثم ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً: أحدها: أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه، وثانيها: أنك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد، إذ لو قلت: فلان لا يقاومه أحد فلا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان. وثالثها: أن الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي؛ تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً، وتقول في النفي: ما رأيت أحداً، فيفيد العموم.

المسألة الخامسة: اختلف القراء في قوله: «اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ» بالوصل، فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر؛ هكذا: «أَحَدُنِ اللَّهِ»، وهو القياس الذي لا إشكال فيه، وذلك لأن التنوين من «أحد» ساكن، ولام المعرفة من اسم «الله» ساكنة، ولما التقى ساكنان حُرِّك الأول منهما بالكسر، وعن أبي عمرو، «أَحَدُ اللَّهِ...» بغير تنوين، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزداد كما يزدن، فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنةً لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك، نحو غزا القوم ويغزو القوم، ويرمي القوم، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحو: «لَمْ يَكُ»^(٢٩)، «فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ»^(٣٠)، فكذا ههنا حذفت في «أَحَدُ اللَّهِ...» لالتقاء الساكنين، كما حذفت هذه الحروف. وقد

^{٢٩} سورة الأنفال: ٥٣.

^{٣٠} سورة هود: ١٧.

ذكرنا هذا مستقصى عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٣١) وروي أيضاً عن أبي عمرو: ﴿أَحَدُ اللَّهِ﴾... وقال: أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلاً على السكون، قال أبو علي: قد تجري الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف، وعلى هذا قال من قال: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾^(٣٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ﴿نَارُ﴾^(٣٣) لما كان أكثر القراء - في ما حكاه أبو عمرو - على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم، وقرأ الأعمش: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾، فإن قيل: لماذا؟ قيل: «أحد» على النكرة، قال الماوردي: فيه وجهان: أحدهما: حذف لام التعريف على نية إضمارها، والتقدير قل: «هو الله الأحد»، والثاني: أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم.

المسألة السادسة: اعلم أن قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألفاظ ثلاثة، وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين؛ فالمقام الأول: مقام المقربين، وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله، لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده، وأما ما عداه فممكّن لذاته، والممكن لذاته إذا نُظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه، وقوله: ﴿هُوَ﴾

^{٣١} سورة التوبة: ٣٠.

^{٣٢} سورة الأحزاب: ٦٨، ٦٧.

^{٣٣} القارعة: ١١، ١٠.

إشارة مطلقة، والإشارة وإن كانت مطلقة فإن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين، فلا جرم كان قولنا: هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه، فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط، فلهذا السبب كانت لفظة: «هُوَ» كافية في حصول العرفان التام هؤلاء، والمقام الثاني: هو مقام أصحاب اليمين، وهو دون المقام الأول، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً، فحصلت كثرة في الموجودات، فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق، بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق: فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة «هو»، ف قيل: لأجلهم «هو الله»، لأن الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه، ويستغني هو عن كل ما عداه. والمقام الثالث: وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد، وأن يكون الإله أكثر من واحد، فقرن لفظ «الأحد» بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطال لمقالاتهم ف قيل: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». وههنا بحث آخر أشرف وأعلى مما ذكرناه، وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية، وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية فكقولنا: عالم، قادر مريد خلاق، وأما السلبية فكقولنا: ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض. والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات، وثانياً على

النوع الثانى منها، وقولنا: «الله» يدل على مجامع الصفات الإضافية، وقولنا: «أحد» يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا: «اللَّهُ أَحَدٌ» تاماً في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية، وإنما قلنا: إن لفظ «الله» يدل على مجامع الصفات الإضافية، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع، والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات. وهذه مجامع الصفات الإضافية، وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزاء التركيب، وكل واحد من أجزائه غيره، فكل مركب مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته، فكل مركب ممكن لذاته، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً، فهو في نفسه فرد أحد، وإذا ثبتت الأحدية وجب ألا يكون متحيزاً، لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهات، ويجب ألا يكون حالاً في شيء، لأنه مع محله لا يكون أحداً، ولا يكون محلاً لشيء، لأنه مع حاله لا يكون أحداً، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً ألبتة، لأن التغير لا بد أن يكون من صفة إلى

صفة، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً، إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لا شتركا في الوجود ولتمايزا في التعين، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً، فإن قيل: كيف يعقل كون الشيء أحداً، فإن كل حقيقة توصف بالأحادية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحادية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد. الجواب: أن الأحادية لازمة لتلك الحقيقة، فالمحكوم عليه بالأحادية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحادية، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب، وتام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله: ﴿وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَحِدٌ﴾^(٣٤).

وقال الرازي: «وجب الجزم بأن كل مذهب يخالف هذه السورة يكون باطلاً. فنقول: إن قوله تعالى: «أحد» يدل على نفي الجسمية، ونفي الحيّز والجهة... وفرعون سأل موسى عن صفة الله تعالى فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣٥)؟ إن موسى لم يذكر الجواب على السؤال إلا بكونه خالقاً للناس ومدبراً لهم، وخالقاً السماوات والأرض ومدبراً لها»^(٣٦).

وقال الرازي: قال الأزهري: «لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى، لا يقال:

^{٣٤} سورة البقرة: ١٦٣.

^{٣٥} سورة الشعراء: ٢٣.

^{٣٦} أساس التقديس، للرازي، ص ٣٠، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦.

رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد أي فرد به، بل «أحد» صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء. ثم قال: ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً:

أحدها: أن الواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه.

وثانيها: أنك لو قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد. فإنك لو قلت: فلان لا يقاومه أحد، لا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان.

وثالثها: أن الواحد، يستعمل في الإثبات، والأحد يستعمل في النفي؛ تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً. وتقول في النفي: ما رأيت أحداً، فيفيد العموم...».

وقال الشنقيطي: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۖ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣٧﴾... جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلاً كما قرره نقلاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۖ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٣٨﴾. وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿٣٩﴾ فدل على عدم فسادهما بعدم تعددهما، وجمع العقل والنقل في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾

٣٧ سورة الإخلاص: ٢-٤.

٣٨ سورة الإسراء: ٤٢-٤٣.

٣٩ سورة الأنبياء: ٢٢.

وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^(٤٠): قال الطبراني: اختلف المفسرون في سبب نزول هذه السورة فعن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾. وعن مقاتل: ﴿أَنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيِّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُنَعْتُ لَنَا رَبَّكَ؛ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ أَمْ مِنْ صُفْرِ، فَإِنَّ آلِهَتَنَا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؟! قَالَ: بَيْنَ لَنَا أَيُّكُلُ وَيَشْرَبُ؟! وَكَيْفَ هُوَ؟ فَشَقَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ﴾. وعن سعيد بن جبير: ﴿أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّكَ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنْ دُخَانٍ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ، فَأَخْبَرْنَا عَنْ رَبِّكَ مِمَّ خَلَقَهُ؟!﴾. وروى أنهم ﴿قالوا: إِنَّ هَذَا الْخَلْقَ خَلَقَ اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَهُ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى جَعَلَ لَحْمَهُ يَرُبُّو عَلَيْهِ وَحَتَّى هَمَّ أَنْ يُبَاسِطَهُمْ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ جِبْرِيلُ: أَنْ اسْكُنْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورَةَ﴾.

وقال ابن كيسان: ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَةِ، فَمَا طُولُهُ وَمَا عَرْضُهُ؟ فَارْتَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَوَضَعَ إصْبَعِيهِ فِي أُذُنَيْهِ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَمْسَحُ الدُّمُوعَ عَنْ وَجْهَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ جَوَاباً لَهُمْ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾. والمعنى: قل لهم يا محمد: الذي سألتكم عن تبين نسبه هو الله، وهذا الاسم معروف عند جميع أهل الأديان

والمَلَل، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٤١).

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾^(٤٢): قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيز، وعيسى، والملائكة، ذرية الله، سبحانه؛ تعالى الله عن أقوالهم!

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ﴾: قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، رداً لقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(٤٣). وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ﴾ يعني لم يذلّ فيحتاج إلى وليٍّ ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: «الله أكبر»؛ أي وصفه بأنه أكبر من كل شيء. قال الشاعر:

رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا

﴿وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: «الله أكبر»﴾، وقال عمر بن الخطاب:

^{٤١} سورة الزخرف: ٨٧.

^{٤٢} سورة الإسراء: ١١١.

^{٤٣} سورة المائدة: ١٨.

قول العبد: «الله أكبر» خير من الدنيا وما فيها. وهذه الآية هي خاتمة التوراة؛ روى مطرّف عن عبد الله بن كعب قال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة. وفي الخبر: ﴿أُنْهَا آيَةُ الْعِزِّ﴾^(٤٤)، وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: ﴿كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَفْصَحَ الْغَلَامَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ عِلْمَهُ «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي...» الْآيَةَ﴾. وقال عبد الحميد بن واصل: ﴿سَمِعْتُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَرَأَ «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» الْآيَةَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي مَنْ زَعَمَ أَنْ لَهُ وَلَدًا: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَقَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا»^(٤٥)، وجاء في الخبر: ﴿أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الدَّيْنَ بِأَنْ يَقْرَأَ «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ»، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ثُمَّ يَقُولُ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤٦): قال ابن كثير: نزه الله سبحانه وتعالى نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ أي: إذا أراد

^{٤٤} رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ.

^{٤٥} سورة مريم: ٩٠.

^{٤٦} سورة مريم: ٣٥.

شيئاً، فإنما يأمر به، فيصير كما يشاء، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٤٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٤٨): قال القرطبي: هذا تكذيب لهم في أن الله شريكاً وولداً؛ أي هو المستحق للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر رضي الله عنه وغيره: المعنى «وهو الذي في السماء إله في الأرض»، وكذلك قرأ. والمعنى أنه يعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللَّهُ وَفِي الْأَرْضِ اللَّهُ» وهذا خلاف المصحف. و«إله» رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي. وحسن حذفه لطول الكلام.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٤٩): قال الطبراني: أراد به قولهم «إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ، والملائكة بناتُ الله». قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾؛ معناه: بل هم عبيدٌ أكرمهم الله بالطاعة واصطفاهم.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكْ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي

^{٤٧} سورة آل عمران: ٥٩ - ٦٠.

^{٤٨} سورة الزخرف: ٨٤.

^{٤٩} سورة الأنبياء: ٢١.

الظَّالِمِينَ^(٥٠): قال الطبراني: أي مَنْ يَقُلْ مِنَ الملائكة إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فذلك يَجْزِيهِ جَهَنَّمُ، قال المفسرون: يعني إبليس، لأنه أَمَرَ بطاعة نفسه، ودعا إلى نفسه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أي كما جَزَيْنَاهُ جَهَنَّمَ، نَجْزِي الظَّالِمِينَ الْمُشْرِكِينَ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٥١): قال ابن كثير: أي: إنما يظهر لكم آياته؛ لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه، باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكلُّ خاضعٍ حقيرٍ بالنسبة إليه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٥٢): قال الطبري: يقول جل ثناؤه: ولا تجعلوا أيها الناس مع معبودكم الذي خلقكم معبوداً آخر سواه، فإنه لا معبود تصلح له العبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول: إني لكم

^{٥٠} سورة الأنبياء: ٢٩.

^{٥١} سورة الحج: ٦٢.

^{٥٢} سورة الذاريات: ٥١.

أيها الناس نذير من عقابه على عبادتكم إلهاً غيره، مبين قد أبان لكم النذارة.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٥٣): قال القرطبي: ... في الترمذي وسنن ابن ماجه عن أنس بن مالك، ﴿عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له﴾ قال الترمذي: حديث حسن غريب. وفي بعض التفسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار. وقال محمد بن نصر: المعنى: أنا أهل أن يتقيني عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلاً أن أغفر له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٥٤): قال ابن كثير: يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. وعن ابن أبي حاتم، قال ابن عباس في الآية: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا

^{٥٣} سورة المدثر: ٥٦.

^{٥٤} سورة غافر: ١٩.

غض، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض (بصره عنها)، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. وقال الضحاك: ﴿خَايِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾ هو الغمز، وقول الرجل: «رأيت» ولم ير؛ أو: «لم أر» وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم (الله) تعالى من العين في نظرها؛ هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم؛ إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ أي: من الوسوسة.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٥٥): قال الفخر الرازي: احتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة، وقالوا لو كان جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر؛ فيقال إما أن يكون المراد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في ماهيات الذات، وإما أن يكون المراد ليس كمثلته في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة

^{٥٥} سورة الشورى: ١١.

المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسماً، لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية، أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذ تكون سائر الأجسام ماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتاً، والنص ينفي ذلك، فوجب ألا يكون جسماً.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٥٦): قال الشنقيطي: قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ: مقاليد السماوات والأرض هي مفاتيحهما. وهو جمع لا واحد له من لفظه، فمفردتها إقليد، وجمعها مقاليد على غير قياس. والإقليد المفتاح. وقيل: واحدها مقليد، وهو قول غير معروف في اللغة. وكونه جل وعلا ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مفاتيحهما؛ كناية عن كونه جل وعلا هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض، لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها. وقد ذكر جل وعلا مثل هذا في سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥٧) الآية. وما دلت عليه آية الشورى هذه وآية الزمر المذكورتان من أنه جل وعلا هو مالك خزائن السماوات والأرض، جاء موضعاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

^{٥٦} سورة الشورى: ١٢.

^{٥٧} سورة الزمر: ٦٢-٦٣.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^(٥٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٥٩). وبين في مواضع آخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره، كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾^(٦٠)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾^(٦١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾^(٦٢). وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾^(٦٣) الآية. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦٤)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٦٥) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾^(٦٦) الآية. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٦٧) الآية.

^{٥٨} سورة المنافقون: ٧.

^{٥٩} سورة الحجر: ٢١.

^{٦٠} سورة ص: ٩.

^{٦١} سورة الطور: ٣٧.

^{٦٢} سورة الإسراء: ١٠٠.

^{٦٣} سورة سبأ: ٣٩.

^{٦٤} سورة سبأ: ٣٦.

^{٦٥} سورة الرعد: ٢٦.

^{٦٦} سورة النحل: ٧١.

^{٦٧} سورة الزخرف: ٣٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا﴾^(٦٨) الآية. وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(٦٩) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضيق عليه رزقه لقلته. وكذلك قوله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ في الآيات المذكورة: أي يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر، أي يضيق الرزق على من يشاء تضيقه عليه. وقد بين جل وعلا في بعض الآيات حكمة تضيقه للرزق على من ضيقه عليه، وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان، قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٧٠)، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَاءً﴾^(٧١).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(٧٢): قال الإمام القرطبي: نفى عن نفسه - سبحانه وتعالى - الولد، لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث، ولا يليق به ذلك، ولا يوصف به، ولا يجوز في حقه... وقال الشيخ طنطاوي: روى البخاري عن أبي هريرة قال: ﴿قال

٦٨ سورة النساء: ١٣٥.

٦٩ سورة الطلاق: ٧.

٧٠ سورة الشورى: ٢٧.

٧١ سورة العلق: ٦-٧.

٧٢ سورة مريم: ٨٨-٩٢.

رسول الله ﷺ: يقول الله - تبارك وتعالى - كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوله: «لن يعيدني كما بدّأني». وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته.*

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٧٣) قال الطبراني: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾؛ أي يحكم بالقسط والعدل، لا يمنع أحداً من ثواب عمله، ولا يعاقبه على ذنب لا يكتسبه، بل يجزي بالحسنة والسيئة، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾؛ معناه: والذين تدعون من دون الله من الأصنام لا ينفعون من أطاعهم، ولا يضرّون من عصاهم ولا يُجازون أحداً؛ لأنهم لا يعلمون ولا يقدرون. وقرأ نافع ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بالتاء، وقرأ الباقر بالياء، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾؛ لِمَقَالَتِهِمْ، ﴿الْبَصِيرُ﴾؛ بهم وأعمالهم.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٧٤) قال الرازي: «أي بارٌّ رحيم بهم، يعني أهل طاعته، وقال مقاتل: ﴿لَطِيفٌ﴾ بالبرّ والفاجر، لا يهلكهم جوعاً، يدلّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وكلّ من رزقه الله من مؤمنٍ وكافرٍ ذي روحٍ ممن يشاء أن يرزقه، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾؛ على ما أراد من

^{٧٣} سورة غافر: ٢٠.

^{٧٤} سورة الشورى: ١٩.

رِزْقٍ مِّنْ يَّرْزُقُهُ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعنى الغالبُ الذي لا يلحقه عَجْزٌ في ما أراد. و﴿اللَّطِيفُ﴾ هو المُوَصِّلُ للنفع إلى غيره من جهة يُدْقُ استدراكها. يقول تعالى ذكره: الله ذو لطف بعباده، يرزق من يشاء فيوسع عليه، ويقتَرُّ على من يشاء منهم ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الذي لا يغلبه ذو أيدٍ لشدته، ولا يمتنع عليه إذا أراد عقابه بقدرته، ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه إذا انتقم من أهل معاصيه».

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٧٥): قال الرازي: «هذه الآية إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم، مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناءً على الوعد، قطعاً لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى، فقال هذا النقد غير مختص بكم، فإن كثيراً من الأشقياء مدقعون، وكثيراً من الأتقياء ممتعون، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا المعنى مرتين: مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم، كأنه قال: وجود الترف لا يدل على الشرف، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك، فإن الله يملكهم دياركم وأموالكم، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، بل قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وثانياً قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾

مِنْ عِبَادِهِ»، و«العباد» المضافة يراد بها المؤمن، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر، فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، وماله إلى الوبال. وأما المؤمن فما ينفعه يخلفه الله، ومُخْلَفُ الله خير، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف، وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ﴾^(٧٦) وخيرية الرازق في أمور، أحدها: ألا يؤخر عن وقت الحاجة، والثاني: ألا ينقص عن قدر الحاجة، والثالث: ألا ينكده بالحساب، والرابع: ألا يكدره بطلب الثواب، والله تعالى كذلك. أما الأول: فلأنه عالم وقادر، والثاني: فلأنه غني واسع، والثالث: فلأنه كريم، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٧٧) وما ذكرنا هو المراد، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه، والرابع: فلأنه عَلِيٌّ كَبِيرٌ، والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثواباً.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً﴾ وذلك لأن الله تعالى ملك عَلِيٌّ وهو غنيٌّ مَلِيٌّ، فإذا قال: أَنْفَقَ وَعَلِيٌّ بَدَلُهُ فبحكم الوعد يلزمه، كما إذا قال قائل: أَلْقِ متاعك في البحرِ وعليَّ ضمانه، فمن أنفق فقد أتى بما

^{٧٦} سورة الجمعة: ١١.^{٧٧} سورة البقرة: ٢١٢.

هو شرط حصول البدل فيحصل البدل، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل، فيفوت من غير خلف وهو التلف، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة، وإن كان من الفقراء ويقول: إن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال، وكل ذلك ملك الله، وفي يد الإنسان بحكم العارية، فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ينبئ عن كثرة في الرازقين، ولا رازق إلا الله! فما الجواب عنه؟ فنقول عنه جوابان: أحدهما: أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين، وكذلك في قوله تعالى: وهو ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٧٨)،

وثانيهما: هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأول العلم، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة، وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثاني الرازق والخالق، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطياً، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان، مثال الثالث الأزلي والله وغيرهما، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله».

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٧٩)
قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه، إذا تابوا ورجعوا إليه: إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر؛ وكقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(٨٠)، وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، قال: ﴿قال رسول الله ﷺ: لله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم

^{٧٩} سورة الشورى: ٢٥.

^{٨٠} سورة النساء: ١١٠.

كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح❦، وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه❦.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٨١).

قال ان كثير: «قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي؛ لقرايتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم﴾»، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿أن النبي ﷺ قال: لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً، إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تقربوا إليه بطاعته﴾، وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله، وهذا كأنه تفسير بقول ثانٍ؛ كأنه يقول: إلا المودة في القربى، أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. وقول ثالث، وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير ما معناه: أنه قال: معنى

^{٨١} سورة الشورى: ٢٣.

ذلك: أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم..... وقال ابن أبي حاتم: ﴿عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: فاطمة وولدها رضي الله عنهما﴾، وهذا إسناد ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعي مخترق، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد؛ فإنها مكية، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية؛ فإنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة».

حَرْثُ الْآخِرَةِ أَمْ حَرْثُ الدُّنْيَا:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٨٢).

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه؛ في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر؛ كقوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٨٣)، ولها نظائر كثيرة، وقوله جل وعلا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ

^{٨٢} سورة الشورى: ٢٠.

^{٨٣} سورة هود: ٦.

الْعَزِيزُ^(٨٤) أي: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء، ثم قال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدد، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما يشاء الله، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم ألبتة بالكلية، حرمه الله الآخرة والدنيا، إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في «سبحان الذي أسرى»، وهي قوله تبارك وتعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِجْلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(٨٥). وقال الثوري: ﴿عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة

^{٨٤} سورة الشورى: ١٩.

^{٨٥} سورة الإسراء: ١٨-٢١.

والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب ﴿٨٦﴾.

الكفار العنيد:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٨٦﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٨٧﴾ الَّذِي جَعَلَ

مع الله إلهًا آخرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾^(٨٦).
قال الألوسي: «﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، بناء على أنها اثنان لا واحد جامع للوصفين، أو للملكين من خزنة النار، أو لواحد على أن الألف بدل من نون التوكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، وأيد بقراءة الحسن «أَلْقَيْنِ» بنون التوكيد الخفيفة، وقيل: إن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا: خليلي، وصاحبي، وقفًا، وأسعدًا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، وما في الآية محمول على ذلك كما حكى عن الفراء، أو على تنزيل تشنية الفاعل منزلة تشنية الفعل بأن يكون أصله أَلْقَى أَلْقَى، ثم حذف الفعل الثاني وأبقى ضميره مع الفعل الأول، فثني الضمير للدلالة على ما ذكر كما في قوله:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحمر عرضاً ممنعاً

وحكى ذلك عن المازني والمبرد، ولا يخفى بُعدُه. ولينظر هل هو حقيقة أو مجاز؟

والأظهر أنه خطاب لاثنين، وهو المروي عن مجاهد وجماعة، وأياً ما كان فالكلام على تقدير القول، كما مر. والإلقاء طرح الشيء حيث تلقاه؛ أي تراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح، أي اطرحا في جهنم كل مبالغ في الكفر للمنعم والنعمة ﴿عَنِيدٍ﴾ مبالغ في العناد وترك الانقياد للحق، وقريب منه قول الحسن: جاحد متمرد، وقال قتادة: أي منحرف عن الطاعة يقال: عند عن الطريق عدل عنه، وقال السدي: المساق من العند، وهو عظم يعرض في الحلق، وقال ابن بحر: المعجب بما عنده.

قال القشيري في «لطائف الإشارات»: «﴿مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾: مَنَّاغٍ للزكاة المفروضة. ويقال: يمنع فضل مائه وفضل كلِّه عن المسلمين. ويقال: يمنع الناس من الخير والإحسان، ويسيء القول فيهما حتى يُزهد الناس فيهما. ويقال: المناعُ للخير هو المِعْوَانُ على الشرِّ. ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٨٧). ﴿مُرِيبٍ﴾: أي يُشكِّكُ الناسَ في أمره لأنه غير مخلص، ويُلبِّسُ على الناس حاله لأنه منافق».

قال الطبراني: «﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: أي شريكاً، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾: أي اطرحاه في النار.

^{٨٧} سورة الماعون: ٧

قال الطبري: «مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ»^(٨٨): أي لا خَلْفَ لَوَعِدِي ووعيدي، وقد قَضَيْتُ ما أَنَا قاضٍ عليكم من العذاب، لا تبديلَ له. وَقِيلَ: معناه: لا يُكَذِّبُ عندي ولا يغيِّرُ القولَ من جُمْلَتِهِ؛ لأنِّي أعلمُ الغيبَ وأعلمُ كيف ضَلُّوا وكيف أضَلَلْتُموهم، ولا يقدرُ أحدٌ أن يُشْقِيَ أحداً مِمَّنْ أسعدتُهُ، ولا يُسعدُ أحدٌ مِمَّنْ أشقَّيته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ أي لا أعاقِبُ أحداً من غيرِ جُرمٍ، ولا أخْذُلُ أحداً من غيرِ ذنبٍ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا.

الدنيا متاع:

قال الله عز وجل: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ»^(٨٩).

قال ابن كثير: «يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا؛ استدراجاً لهم وإمهالاً؛ كما قال: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ»^(٩٠)، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادّخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ

^{٨٨} سورة ق: ٢٩.

^{٨٩} سورة الرعد: ٢٦.

^{٩٠} سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦.

إِلَّا مَتَّعٌ»، كما قال: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٩١)، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٩٢)، وقال الإمام أحمد: ﴿عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟ وأشار بالسبابة﴾، ورواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر: ﴿أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسكّ ميت، والأسك: الصغير الأذنين، فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه﴾.

فلأموال والدور والقصور متاع قليل... سنوات تمضي، وأيام تنتهي، وأنفاس لا تعود! ثم الحساب والجزاء. قال خالد بن صفوان: «بتّ ليلتي أتمنى، فكسبت البحر الأخضر، والذهب الأحمر، فإذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران». وقال إسحاق بن جبلة: «دخل الحسن بن صالح يوماً السوق وأنا معه، فرأى هذا يخيط، وهذا يصبغ، فبكى، وقال: انظر إليهم يتعللون حتى يأتيهم الموت». وقال الحسن: «والله! ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد، فلم يظن أنه خير له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه». ف كان همهم الآخرة، وعيونهم تجاه يوم عظيم.

^{٩١} سورة النساء: ٧٧.^{٩٢} سورة الأعلى: ١٦-١٧.

وقال موسى بن المغيرة: «رأيت محمد بن سيرين يدخل السوق نصف النهار، يكبر ويسبّح، ويذكر الله، عز وجل، فقال له رجل: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ قال: إنها ساعة غفلة».

وقال مالك بن دينار: «اتخذ طاعة الله تجارة تأتيك الأرباح من غير بضاعة».

حكيمته - تعالى - في بسط الرزق:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٩٣).

قال الشوكاني في «فتح القدير»: «﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو وسّع الله لهم رزقهم لبغوا في الأرض ولعصوا فيها، وبطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ما ليس لهم طلبه. وقيل: المعنى: لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، والأول أولى. والظاهر عموم أنواع الرزق. وقيل: هو: المطر خاصة، ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أي: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكيمته البالغة. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ﴾ بأحوالهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه، ويكفه عن الفساد بالبغي في الأرض».

مخلوقات في السماوات وفي الأرض:

^{٩٣} سورة الشورى: ٢٧.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(٩٤).

قال الزمخشري في «الكشاف»: «﴿وَمَا بَثَّ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً يحمل على المضاف إليه أو المضاف. فإن قلت: لم جاز «فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ»، والدواب في الأرض وحدها؟ قلت: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم، وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعلوا نُؤيسَ منهم. ومنه قوله تعالى: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ»^(٩٥) وإنما يخرج من الملح، ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران، فيوصفوا بالديب كما يوصف به الأناسي. ولا يبعد أن يخلق في السماوات حيواناً يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سبحانه الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق».

الحياة الدنيا:

﴿اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

^{٩٤} سورة الشورى: ٢٩.

^{٩٥} سورة الرحمن: ٢٢.

حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (سورة الحديد: ٢٠).

قال القرطبي: «عن علي رضي الله عنه، قال لعمار: لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشوم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة، وأفضل المشوم المسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراؤ به أقبحها. ثم ضرب الله تعالى لها مثلاً بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الكفار هنا: الزراع لأنهم يغطون البذر. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن. وقد مضى معنى هذا المثل في «يونس» و«الكهف». وقيل: الكفار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين. وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها».

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾^(٩٦): قال الزمخشري في «الكشاف»: «قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فأعرض عنه ولا تقابله، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالضال والمهتدي، وهو مجازيها بما يستحقان من الجزاء».

القرآن الكريم:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٩٧﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

قال القرطبي: «أي متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل ﴿مَجِيدٌ﴾: أي غير مخلوق. ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أم الكتاب؛ ومنه انتسخ القرآن والكتب. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حجر مَلَكٍ يقال له ما طُريون، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة؛ ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء؛ يرفع وضيعاً، ويضع رفيعاً، ويغني فقيراً، ويفقر غنياً؛ يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء؛ لا إله إلا هو. وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ

^{٩٦} سورة النجم: ٣٠.

^{٩٧} سورة البروج: ٢١-٢٢.

الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرائيل. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقيل: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخلقة وبيان أمورهم وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم؛ وهو أم الكتاب. وقال ابن عباس: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: «إني أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبه صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليخذلهاً سواي». وكتب الحجاج إلى محمد ابن الحنفية رضي الله عنه يتوعده؛ فكتب إليه ابن الحنفية: «بلغني أن الله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ، يُعز ويذل، ويبتلي ويُفرح، ويفعل ما يريد؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها ولا تنفرغ». وقال بعض المفسرين: اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه. وقرأ ابن السَّمِيق وأبو حَيوة «قُرْآنٌ مَجِيدٌ» على الإضافة؛ أي قرآن ربِّ مجيد. وقرأ نافع «فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ» بالرفع نعتاً للقرآن؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. وقرأ الباقر بالجذر نعتاً للوح. والقراء متفقون على فتح اللام من «لوح» إلا ما روي عن يحيى بن يعمر؛ فإنه قرأ «لَوْحٍ» بضم اللام؛ أي إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال الزمخشري: واللُّوح الهواء؛ يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح. وفي الصحاح: لاح الشيء يلوح لَوْحاً أي لَمَحَ. ولاحهُ السفر: غيَّره.

ولاح لوحاً ولواحاً: عطش، والتاح مثله. واللوح: الكتيف، وكل عظم عريض.
واللوح: الذي يكتب فيه. واللوح (بالضم): الهواء بين السماء والأرض.
والحمد لله.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٩٨).

قال محمد متولي الشعراوي: «القرآن قد جاء بعد كُتب متعددة، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله؛ إلا أن أيّ كتاب منها لم يكن معجزة؛ بل كانت المعجزة تنزل مع أيّ رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ، وعادة تكون المعجزة من صنف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم، وما دام المنهج مفصلاً عن المعجزة؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أن يحافظوا عليها، وكان هذا تكليفاً من الحق سبحانه لهم، والتكليف - كما نعلم - عُرضة أن يُطاع، وعُرضة أن يُعصى، ولم يلتزم أحد من الأقسام السابقة بحفظ الكتب المنزلة إليهم. ونجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ...﴾^(٩٩) أي: أن الحق - سبحانه وتعالى - قد كلفهم وطلب منهم أن يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه؛ وهذا التكليف عُرضة أن يطاع، وعُرضة أن يُعصى؛ وهم قد عصوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدلوا وحذفوا من تلك

^{٩٨} سورة الحجر: ٩.

^{٩٩} سورة المائدة: ٤٤.

الكتب الكثير. وقال الحق سبحانه عنهم: ﴿... وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١٠٠)، بل أضافوا من عندهم كلاماً وقالوا: هو من عند الله؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١٠١)، وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين لرسول الله ﷺ. ولذلك لم يشأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن بمثابة تكليف منه للبشر؛ لأن التكليف عُرْضة أن يطاع وعُرْضة أن يُعصى، فضلاً عن أن القرآن يمتاز على الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج، وهو المعجزة الدالة على صدق بلاغ رسول الله ﷺ في الوقت نفسه، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، والذكر إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج؛ وسبحانه قد شاء حفظه؛ لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله ﷺ، وكان الصحابة يكتبون القرآن فوراً أن ينزل على رسول الله ﷺ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن؛ ولكنهم يتفتنون في وسائل حفظه؛ فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة؛ وسخر لذلك مواهب أناسٍ غير مؤمنين بالقرآن. وحدث مثل ذلك حين تَمَّ تسجيل المصحف بوسائل

١٠٠ سورة البقرة: ١٤٦.

١٠١ سورة البقرة: ٧٩.

التسجيل المعاصرة. وفي ألمانيا - على سبيل المثال - توجد مكتبة يتم حفظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعَيَّن مُحدّد.

وقال الطبراني: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: الذي جعلناه مُعْجِزاً لا يُقدَّر على الإتيان بمثله، فهو محفوظٌ من الزيادة والنقصان، ويقال: هو محفوظٌ من كَيْدِ المشركين بالإبطال».

وقال مكي القيسي: «أي: نزلنا القرآن وإنا له لحافظون أن يزداد فيه باطل وما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه. قال مجاهد وقتادة. وقد قيل: إن الهاء (التي) في «له» لمحمد ﷺ».

وقال الطبري: «... عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١٠٢)، والباطل: إبليس، فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزداد فيه باطلاً ولا ينتقص منه حقاً، حفظه الله من ذلك. وقيل: الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من ذكر محمد ﷺ، بمعنى: وإنا لمحمد ﷺ حافظون ممن أراد به سوء من أعدائه».

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﷻ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(١٠٣) قال الرازي: «وفيه مسائل:

١٠٢ سورة فصلت: ٤٢.

١٠٣ سورة القيامة: ١٧، ١٦.

المسألة الأولى: زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك!

واعلم أن في بيان المناسبة وجوهاً، أولها: يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه، إنما اتفق للرسول ﷺ عند إنزال هذه الآيات عليه، فلا جرم. نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئاً، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالاً، ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثناءه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب. **وثانيها:** أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة، وذلك هو قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ﴾^(١٠٤)، ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً، حتى التعجيل في أمور الدين، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وقال في آخر الآية: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾^(١٠٥)، **وثالثها:** أنه تعالى قال: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﷻ **ولو ألقى معاذيره**^(١٠٦) فههنا كان الرسول ﷺ يظهر

^{١٠٤} سورة القيامة: ٥.

^{١٠٥} سورة القيامة: ٢٠.

^{١٠٦} سورة القيامة: ١٤، ١٥.

التعجيل في القراءة مع جبريل، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان، فكأنه قيل له: إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانتة، فترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. ورابعها: كأنه تعالى قال: يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم، لكن لا حاجة إلى هذا فإن الإنسان على نفسه بصيرة، وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان وإنكار البعث منكر باطل، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة، فلا جرم قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾. وخامسها: أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول: أين المفر؟ ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾^(١٠٧)، فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره، فقيل: لمحمد ﷺ: إنك في طلب حفظ القرآن، تستعين بالتكرار، وهذا استعانة منك بغير الله، فترك هذه الطريقة، واستعن في هذا الأمر بالله، فكأنه قيل: إن الكافر يفر من الله إلى غيره، وأما أنت فكأنك كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين في كل الأمور بالله، حتى يحصل لك المقصود على ما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، وقال في سورة أخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ

مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا^(١٠٨). أي لا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار، بل اطلبه من الله تعالى. وسادسها: ما ذكره القفال، وهو أن قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ ليس خطاباً مع الرسول ﷺ، بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾^(١٠٩)، فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(١١٠)، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجتمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فأتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل، وفيه أشد الوعيد في الدنيا وأشد التهويل في الآخرة، ثم قال القفال: فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به.

المسألة الثانية: احتج من جَوِّز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية، فقال: إن ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه، وإن كان لا بإذن الله

^{١٠٨} سورة طه: ١١٤.

^{١٠٩} سورة القيامة: ١٣.

^{١١٠} سورة الإسراء: ١٤.

تعالى فقد صدر الذنب عنه. والجواب: لعل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي عنه، ولا يبعد أن يكون الشيء مأذوناً فيه في وقت ثم يصير منهياً عنه في وقت آخر، ولهذا السبب قلنا: يجوز النسخ.

المسألة الثالثة: ﴿عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يشد عليه حفظ التنزيل، وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفثيه قبل فراغ جبريل، مخافة ألا يحفظ، فأنزل تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ أي بالوحي والتنزيل والقرآن، وإنما جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١١١)، ونظير قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وقوله: ﴿لَتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لتعجل بأخذه».

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(١١٢) قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: «﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾: أي في صدرك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: أي قراءتك إياه، والقرآن مصدر كالقراءة، قال حسان بن ثابت:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عَنَّا السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

وقيل: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: وتأليفه في صدرك، فهو مصدر من قرأت: أي جمعت، ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد: ما قرأت سلاً قط، وقال عمرو بن كلثوم:

^{١١١} سورة القدر: ١.

^{١١٢} سورة القيامة: ١٧.

ذراعي بكرة أدماء بكرٍ هجان اللون لم تقرأ جنينا
﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾: أي الملك المبلغ عنا، ﴿فَاتَّبِعْ﴾: أي بذهنك وفكرك، أي فاستمع
قراءته، قاله ابن عباس، وقال قتادة والضحاك: فاتبع فيه الأوامر والنواهي».
﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: قال الخازن في «اللباب
التأويل»: «أي لا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك، بل اسكت حتى يتم
جبريل ما يوحي إليك، فإذا فرغ جبريل من القراءة، فخذ أنت فيها، وجعل قراءة
جبريل قراءته لأنه بأمره نزل بالوحي، ونظيره: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ
اللَّهَ﴾^(١١٣)، وقيل معناه اعمل به واتبع حلاله، وحرامه، والقول الأول أولى لأن
هذا ليس موضع الأمر باتباع حلاله وحرامه، وإنما هو موضع الأمر بالاستماع
حتى يفرغ جبريل من قراءته، فكان النبي ﷺ، بعد ذلك، إذا نزل عليه جبريل
بالوحي أصغى إليه، فإذا فرغ من قراءته وعاه النبي ﷺ وحفظه.
﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: أي أن نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وقيل إذا
أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والحلال
والحرام، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه
لغاية حرصه على العلم، ف قيل له: نحن نبينه لك».

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١١٤).

^{١١٣} سورة النساء: ٨٠.

^{١١٤} سورة الأعراف: ٢٠٤.

ما دام المولى سبحانه وتعالى قد أوضح لك، من قبل، أن هذا القرآن بصائر من ربنا وهدى ورحمة، ألا يستحق أن تحتفى به أيها المؤمن؟ ألا تجذبك الفوائد الثلاث؛ البصائر، والهدى، والرحمة لأن تعطي له أذنك وألا تنصرف عنه؟ إذاً لا بد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى، وهو حقيق وجدير أن يُحَرَّص على سماعه إن قُرئ. ولنلاحظ أن الله تعالى قال: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ولم يقل «اسمعوا»، لأن الاستماع فيه تعمّد أن تسمع، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك، وقد تنبّه إلى ما تسمع وقد لا تنبّه، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبي ﷺ، ناهياً عن التسمع لأسرار الآخرين تجسّساً عليهم بالبحث عن عوراتهم، في ما يرويه عنه ﴿أبو هريرة رضي الله عنه، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً﴾. وهذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتنصت إلى أسرار الناس. ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نية التعبد، فيحرم من ثواب الاستماع، فاستمع وأنصت بنية العبادة، لأن الله هو الذي يتكلم، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق: ونبهنا إلى ما فيه الخير، حيث يقول: «عجبت لمن خاف ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فإني سمعت الله عقبها يقول:

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾^(١١٥). وعجبت لمن اغتم، ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فإني سمعت الله عقبها يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١٦). وعجبت لمن مكر به، ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. فإني سمعت الله عقبها يقول: ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾^(١١٧). وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. فإني سمعت الله عقبها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾^(١١٨).

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسن الأدب الذي يجب أن نستقبل به العبر التي تعود بالفائدة علينا. وقد وقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً في أي حال من الأحوال، أو حين يُقرأ في الصلاة، أو حين يُقرأ في خطبة الجمعة؟ وقد اختلفوا في ذلك، فبعضهم قال: إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ في الصلاة، والسبب في ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله ﷺ في الصلاة، يعيدون بعده كل جملة قرآها، فإذا قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾؛

^{١١٥} سورة آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

^{١١٦} سورة الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

^{١١٧} سورة غافر: ٤٤، ٤٥.

^{١١٨} سورة الكهف: ٣٩، ٤٠.

قالوا: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وإذا قرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾^(١١٩)، قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله ﷺ يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة.

وقال آخرون من العلماء: الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة، وفي خطبة الجمعة أو العيدين، لأنها تشتمل على آيات من القرآن، ولكن اشتغالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبي ﷺ: ﴿إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَعَوْتَ﴾^(١٢٠). إذا الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة.

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ؛ ففي هذا احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدي «أبي عبد الله الحسين»، فيقول: إذا قرئ القرآن، سواءً إن كنت في صلاة أم كنت في خطبة، أم كنت حرّاً فأنصت؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام، فميزه بأشياء، إذا قرئ ننصت له، وإذا مسّ المصحف لا بد أن يكون على «وضوء» كي لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأى كتاب من الكتب، وهذا يربي المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ،

^{١١٩} سورة الفاتحة: ١، ٢.

^{١٢٠} صحيح البخاري، برقم ٩٣٤.

فإذا علمنا أولادنا، نقول للواحد منهم: لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ؛
فتنشأ المهابة في نفس الولد.

وأيضاً في «الكتابة» شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة
التقعيد الإملائي؛ كي يكون للقرآن قداسة خاصة، فهو كتاب فريد وليس ككل
كتاب، وكلام الله سبحانه ليس ككل كلام. ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وبعض العلماء قال: ليس المطلوب مجرد الاستماع بالأذان، بل المقصود بالاستماع
هنا هو أن نستجيب لمطالبه، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض:
«الله يسمع دعاك»؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك، ولكنك تقصد بها أن
يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء، إذن فالاستماع للقرآن يقتضي الاستجابة
لمطلوبات القرآن. لماذا؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم. ﴿لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ﴾.

ونعلم أن «لعل» و«عسى» حين تقالان يقصد بهما الرجاء، أما «ليت» فتعني
التمني، وهو مستحيل ولا يُتَوَقَّع، ونحن حين نتمنى فلنظهر أن هذا أمر محبوب
لنا، لكننا نعلم أنه مستحيل، مثلما قال الشاعر العجوز:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

فهو يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود، ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة.
ومثله قول الشاعر:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأُنْظِمَهَا عَقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي
ولن تدنو الكواكب.

إذا ساعة تسمع «عسى» أو «لعل» يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث، وإذا كان رجاءً من الله، فهو رجاء من كريم لا بد له من واقع.
قال الإمام الشعراوي: «والذكر مرور الشيء، إن كان بالبال، فهو ذكر في النفس، وإن كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت فهذا ذكر السر، وإن كان جهراً فهو قسماً؛ جهراً مقبول، وجهراً غير مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذكر إلى إزعاج، والعياذ بالله، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾»^(١٢١).

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله سبحانه في هذا المجال؛ فلا يجهر ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج، لأنني أقول لكل واحد منهم: إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر، إنما طلب دون الجهر، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه؛ فيصيحون ليلاً ويمنعونهم من رحمة الله ليلاً التي قال عنها:

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٢٢).

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر، إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية من مساجد الله وعلى منابر رسول الله ﷺ. وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وَخَيْفَةً﴾^(١٢٣)، والحق تبارك وتعالى يقول مرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾^(١٢٤)، ومرة يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾. وقوله: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ يستشعر سماعها التكليف؛ لأن الله هو المعبود، والمعبود هو المطاع في الأوامر والنواهي. أما قوله: ﴿أَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال؛ خلقتك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى. فاذكر ربك؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً، فأنت قد عشقته لأنه ممدك بالنعم، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم. وأضرب لك هذا المثل - والله المثل الأعلى وهو منزّه عن التشبيه - وأنت لك أولاد، وتعطيهم مصروفاً، وحين تعطيهم المصروف كل شهر، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر، لكن إن كنت تعطي مصروفهم يومياً فأنت تلتفت لتجدهم حولك، فإن كنت نائماً يدخل ابنك غرفة نومك ويسير بجانبك

^{١٢٢} سورة القصص: ٧٣.

^{١٢٣} سورة الأعراف: ٢٠٥.

^{١٢٤} سورة الأحزاب: ٤١.

ويتنحى ليقول إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك؟ وما دمت عبد الإحسان فاذا من يحسن إليك؛ اذكر ربك دائماً. واذكره على حالين: الأول تضرعاً. أي بذلة، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية، واذكر ربك «خيفة» أي خائفاً متضرعاً؛ لأنك كلما ذلت له يعزك، ولذلك نجد العبودية مكروهة في البشر وهي استعباد، والناس ينفرون ممن يستعبدهم؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم، فهي تعطي خير العبد للسيد، ولكن عبوديتك لله تعطي خير الله لك. ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله ﷺ فيقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١٢٥).

وقد أخذ الرسول ﷺ منزلة كبرى بحادثة الإسراء، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد ﷺ. والشاعر المؤمن يقول:

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بَأْنِي عَبْدُ يَخْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا أُلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أَحِبُّ

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت، وإذا أسلمت زمامك للإيمان؛ فالزمام في يدك. يكفي أن تنوي الصلاة وتقول: «الله أكبر» فتكون في حضرته

سبحانه، سواء أكنت في البيت أم في الشارع أم في أي مكان. وفي منتهى العزة لك. ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(١٢٦).

ولم يقل هنا «رب العالمين»، بل «ربك أنت يا محمد ﷺ»، وهذه قمة العطاءات التي جاءت للناس، فهذا العطاء الذي جاء بمحمد ﷺ رسولا، نعمة ومنة من الله على المؤمنين برسالته، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذي جاء لمحمد. وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على ما يشاهد في الخارج والبعيد عنك فقط؛ لأنك قد لا ترى شيئاً في الكون أو لا تسمع شيئاً في الكون؛ لأن الكون منفصل عنك، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١٢٧). فقبل أن يجعل ربنا الدليل في الكون الذي حولك، جعل لك الدليل أيضاً في نفسك؛ لأن نفسك لا تفارقك، وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها، وبنوازعها، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك، وستجد كثيراً من الآيات، وهي آيات أكبر منك، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا، وتخاف ألا تؤدي حقه لديك.

^{١٢٦} سورة الأعراف: ٢٠٥.

^{١٢٧} سورة الذاريات: ٢١.

ونعود إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، والذكر حَدَّثٌ، والحدثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان. والغدو والآصال زمانان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار، والآصال هو من العصر إلى المغرب، مثلما نقول «شمس الأصيل».

وهذه الآية الكونية تتكرر في القرآن الكريم كثيراً، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١٢٨). وكما يقول عز وجل: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١٢٩).

و «الأصيل» هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق عليه الحق سبحانه مرة «بكرة»، وأخرى يطلق عليه: «الغدو»، وسبحانه القائل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١٣٠). إنك ساعة أن تقرأ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ تعرف أن هنا حدثاً؛ لأن قوله: ﴿فِي

^{١٢٨} سورة الأحزاب: ٤١ - ٤٢.

^{١٢٩} سورة الفتح: ٨، ٩.

^{١٣٠} سورة النور: ٣٥ - ٣٧.

بُيُوتٍ» «شبه جملة» في معنى الظرف، وإذا استقرأت ما قبلها، لم تجد لها مُتَعَلِّقًا. وَالْحُظُّ إِذَا أَنْ مَا قَبْلَهَا هُوَ «نُورٌ عَلَى نُورٍ»: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ»، فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله، فذلك نور، وتصلي له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته، وكل هذا «نُورٌ عَلَى نُورٍ»، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، ونعلم أن الصلاة هي الخلوة التي بين العبد وربّه، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة. وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي ﷺ فتصلي ركعتين لله، إن حُزِبَكَ أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك، ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً. «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ»، والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمته أول النهار وأزمته أول الليل. فلماذا أزمته أول النهار وأزمته أول الليل؟

لأن هذه الأزمته هي التي يطلب فيها الذكر. فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج إلى شحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج إلى أن تركز إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة: «الحمد لله»، وعندما

ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول: «ما شاء الله»!
وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول: «سبحان الله»!

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٣١). وهذا التكليف في صلاة الجمعة المفروضة صلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضروري أن نحضر فيها جمعاً؛ لأن الجماعة مشروطة فيها، فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هي ذكر لربنا، فماذا بعدها؟
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٣٢)، أي إياك أن يشغلك انتشارك في الأرض وابتغاؤك من فضل الله والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً...﴾.

ليلة إنزال القرآن الكريم

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(١٣٣).
﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١٣٤).

^{١٣١} سورة الجمعة: ٩.

^{١٣٢} سورة الجمعة: ١٠.

^{١٣٣} سورة الدخان: ٣.

^{١٣٤} سورة الدخان: ٤.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(١٣٥).

﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٣٦).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١٣٧).

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(١٣٨).

﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(١٣٩).

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(١٤٠).

قال الإمام فخر الدين الرازي: "اختلفوا في هذه الليلة المباركة، فقال الأكثرون: إنها ليلة القدر، وقال عكرمة وطائفة آخرون: إنها ليلة البراءة، وهي ليلة النصف من شعبان، أما الأولون فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه: أولها: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وهاهنا قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر، لئلا يلزم التناقض. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(١٤١) فبيّن أن إنزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان، وقال ههنا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ

١٣٥ سورة الدخان: ٥.

١٣٦ سورة الدخان: ٦.

١٣٧ سورة القدر: ١.

١٣٨ سورة القدر: ٣.

١٣٩ سورة القدر: ٤.

١٤٠ سورة القدر: ٥.

١٤١ سورة البقرة: ١٨٥.

مُبَرَكَةٍ»، فوجب أن تكون هذه الليلة واقعة في شهر رمضان، وكل من قال إن هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان، قال إنها ليلة القدر، فثبت أنها ليلة القدر. وثالثها: أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ۖ سَلَامٌ هِيَ﴾، وقال أيضاً ههنا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وهذا مناسب لقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، وهاهنا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾، وقال في تلك الآية: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وقال هاهنا: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾، وقال في تلك الآية: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول إن إحدى الليلتين هي الأخرى! ورابعها: نقل محمد بن جرير الطبري في «تفسيره»: عن قتادة أنه قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوراة ليست ليالٍ منه، والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت منه، والإنجيل لثمانى عشرة ليلة مضت منه، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان، والليلة المباركة هي ليلة القدر. وخامسها: أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم، لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها لسبب ذلك الزمان، لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا، وأعلى الأشياء وأشرفها منصباً في الدين هو القرآن، لأجل أن

به ثبتت نبوة محمد ﷺ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة، كما قال في صفته: ﴿وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾^(١٤٢)، وبه ظهرت درجات أرباب السعادات، ودركات أرباب الشقاوات، فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدراً وأعلى ذكراً وأعظم منصباً منه فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى، سوى ليلة القدر، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان، علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة، وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية، هي ليلة النصف من شعبان، فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس، فإن صح عن رسول الله ﷺ فيه كلام فلا مزيد عليه، وإلا فالحق هو الأول، ثم إن هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء: «الليلة المباركة»، و«ليلة البراءة»، و«ليلة الصك»، و«ليلة الرحمة»، وقيل إنما سميت بليلة البراءة، وليلة الصك، لأن «البندار» إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك فإن الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال: الأولى: تفريق كل أمر حكيم فيها، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ والثانية: فضيلة العبادة فيها، قال رسول الله ﷺ: ﴿من صلى في هذه الليلة مئة ركعة أرسل الله إليه مئة ملك؛ ثلاثون يبشرونه بالجنة،

وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا، وعشرة يدفعون عنه مكاييد الشيطان)، والخصلة الثالثة: نزول الرحمة، قال ﷺ: ﴿إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب﴾، والخصلة الرابعة: حصول المغفرة، قال ﷺ: ﴿إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة، إلا لكاهن، أو مشاحن، أو مدمن خمر، أو عاق للوالدين، أو مُصِرَّ على الزنا﴾، والخصلة الخامسة: أنه تعالى أعطى رسوله ﷺ في هذه الليلة تمام الشفاعة، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر، فأعطي الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر، فأعطي الجميع، إلا من شرد على الله شراد البعير، هذا الفصل نقلته من «الكشاف»، فإن قيل: «لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي تقديرها حركات الأفلاك والكواكب، وأنه في ذاته أمر متشابه الأجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض، والمكان عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض، وإذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر لا مرجح، وإنه محال». قلنا: القول بإثبات حدوث العالم وإثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف، وهو أنه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين بإحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده، فإن بطل هذا الأصل فقد بطل حدوث العالم، وبطل الفاعل المختار، وحينئذ لا يكون

الخنوض في تفسير القرآن فائدة، وإن صح هذا الأصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال، فهذا هو الجواب المعتمد، والناس قالوا لا يبعد أن يخص الله تعالى بعض الأوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعياً للمكلف إلى الإقدام على الطاعات في ذلك الوقت، ولهذا السبب بين أنه تعالى أخفاه في الأوقات وما عيّنه لأنه لم يكن معيناً جوز المكلف في كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملاً له على المواظبة على الطاعات في كل الأوقات، وإذا وقعت على هذا الحرف ظهر عندك أن الزمان والمكان إنما فازا بالتشريفات الزائدة تبعاً لشرف الإنسان، فهو الأصل، وكل ما سواه فهو تبع له، والله أعلم.

وروي أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾، كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا ابن الأسود، لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالاً، والله أعلم.

وبيان نظم هذه الآيات: اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته.

الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه.

الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته.

*** أما النوع الأول:** وهو بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه.

وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلاً في ليلة مباركة، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف.

وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مبيناً، وذلك يدل أيضاً على شرفه في ذاته.

*** وأما النوع الثاني:** وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي

شرفه وجلالته، ثم نقول إن قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يقتضي أمرين:

أحدها: أنه تعالى أنزله، والثاني: كون تلك الليلة مباركة، فذكر تعالى عقيب هذه

الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما، أما بيان أنه تعالى لم أنزله؟ فهو ﴿إِنَّا

كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به،

وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة، فهو أمران: أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل

أمر حكيم، والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوص بشرف أنه إنما يظهر من

عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾.

*** وأما النوع الثالث:** فهو بيان شرف القرآن لشرف منزلته، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، فبين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى، ثم بين

أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة، وهو قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، والأصل أن يقال رحمة منا، إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمرة إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، ثم بيّن أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين، لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فقد قيل فيه إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. أما قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي في تلك الليلة المباركة يفرق أي يفصل ويبين؛ من قوله: فرقت الشيء أفرقه فرقاً وفرقناً، قال صاحب «الكشاف» وقرئ يفرق بالتشديد، ويفرق على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب «كل»، والفارق هو الله عز وجل، وقرأ زيد ابن علي «نفرق» بالنون.

أما قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، فالحكيم معناه ذو الحكمة، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة

يدل على حكمة بالغه الله تعالى، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة، وهذا من الإسناد بالمجازي، لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز، ثم قال: «أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا»، وفي انتصاب قوله «أَمْرًا» وجهان: الأول: أنه نصب على الاختصاص، وذلك لأنه تعالى بيّن شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكونها حكيمة، ثم زاد في بيان شرفها بأن قال أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا كائنًا من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتديرنا. والثاني: أنه نصب على الحال، وفيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون حالاً من أحد الضميرين في «أَنْزَلْنَاهُ»، إما من ضمير الفاعل أي: إنا أنزلناه آمرين أمراً، وإما من ضمير المفعول أي: إنا أنزلناه في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل. والثالث: ما حكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمه الله أنه حمل قوله «أَمْرًا» على الحال، وذو الحال قوله: «كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ». ثم قال: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، يعني: إنا إنما فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين؛ يعني الأنبياء. ثم قال: «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ» أي للرحمة، فهي نصب على أن يكون مفعولاً له. ثم قال: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة؛ لأن المحتاجين إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإما ألا يذكروها، فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم، وإن لم

يذكروها فهو تعالى عالم بها، فثبت أن كونه سميعاً عليماً يقتضى أن ينزل رحمته عليهم».

القرآن للسعادة:

﴿طه ١٤٣﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ.

قال الطبرسي: «الشقاء استمرار ما يشق على النفس، ونقيضه السعادة». وقال الطبراني: «في قوله تعالى ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ وجهان من التفسير، وكلاهما يشهد له القرآن: الأول: أن المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى؛ أي لتعب التعب الشديد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا. وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾^(١٤٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(١٤٥)، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١٤٦)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

^{١٤٣} سورة طه: ١، ٢.

^{١٤٤} سورة فاطر: ٨.

^{١٤٥} سورة الكهف: ٦.

^{١٤٦} سورة الشعراء: ٣.

الوجه الثاني: أنه، ﷺ، صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فأنزل الله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة. وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١٤٧)، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(١٤٨)، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الشنقيطي: «ويفهم من قوله: ﴿لِتَشْقَى﴾ أنه أنزل عليه ليسعد، كما يدل له الحديث الصحيح: ﴿من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين﴾، وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحكم رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: ﴿أن الله يقول للعلماء يوم القيامة: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي﴾، وقال ابن كثير: إن إسناده جيد، ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(١٤٩) الآية. وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب:

^{١٤٧} سورة الحج: ٧٨.

^{١٤٨} سورة البقرة: ١٨٥.

^{١٤٩} سورة المزمل: ٢٠.

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١٠٠).

وقال الشعراوي: «الشقاء: هو التعب والنصب والكد، فالحق سبحانه

ينفي عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه، إذن: فما المقابل؟

المقابل: أنزلنا عليك القرآن لتسعد، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون

أهلاً لنزول القرآن عليك، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله

وفعل الخير كل الخير. فلماذا - إذا - جاءت كلمة ﴿لِتَشْقَى﴾؟

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل، ومطعم بن عدي، والنضر بن الحارث،

والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا له: لقد أشقيت

نفسك بهذه الدعوة. وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

فقد بعث رسول الله ﷺ ليسعد ويُسعد معه قومه والناس أجمعين، لا

ليشقى ويُشقى معه الناس. لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء

هذه؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله، الذي نزل به القرآن، لوجده يتدخل

في إراداته واختياراته، ويقف أمام شهواته، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على

نفسه، ويمنعه مما يَأْلَفُ ومما يحب.

إذاً: فمنهج الله ضد مرادات الاختيار، وهذا يُتعب النفس ويشقُّ عليها إذا عُرِلَت الوسيلة عن غايتها، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء. أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية، ويتعب في الدنيا على أمل الثواب في الآخرة، فيسعد بمنهج الله، لا يشقى به أبداً. كالتلميذ الذي يتحمل مشقة الدرس والتحصيل؛ لأنه يستحضر فرحة الفوز والنجاح آخر العام. ومن هنا رأى هؤلاء الكفار في منهج الله مشقة وتعباً، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها؛ لذلك شعروا بالمشقة، في حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله، وهذه المسألة هي التي جعلتهم يتخذون آلهة لا مطالب لها، ولا منهج، ولا تكليف، آلهة يعبدونها على هواهم، ويسيرون في ظلها «على حلِّ شعورهم». لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون في هذه المسألة، فقال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. أو يكون الشقاء: تعرُّضه لِعُتَاة قريش وصناديدها الذين سخرُوا منه، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم، يشتمونه ويرمون به بالحجارة، وهو، ﷺ، يُشقى نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم. والحق تبارك وتعالى ينفي الشقاء بهذا

المعنى أيضاً: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي: لتُشقى نفسك معهم، إنما أنزلناه لتبليغهم فحسب، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(١٥١).

ونضرب لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - برجل عنده عبدان: ربط أحدهما إليه بحبل، وأطلق الآخر حُرّاً، فإذا ما دعاها فاستجابا لأمره، فأيهما أطوع له، وأكثر احتراماً لأمره؟ لا شك أنه الحر الطليق؛ لأنه جاء مختاراً، في حين كان قادراً على العصيان، وكذلك يريد ربك - تبارك وتعالى - منك أن تأتيه حُرّاً مختاراً مؤمناً، وأنت قادر ألا تؤمن.

وبعضهم يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ، فيقولون: إن رسول الله يخطئ، والله يُصوّب له. ونتعجب: وما يضيركم أنتم؟ طالما أن ربه هو الذي يُصوّب له، هل أنتم الذين صوّبتم لرسول الله ﷺ؟! ثم مَنْ

أخبركم بخطأ رسول الله ﷺ؟ أليس هو الذي أخبركم؟ أليس هذا من قوة أمانته في التبليغ، ويجب أن تحمد له؟

إذاً: فرسول الله ﷺ لا يستنكف أن يُربِّيه ربه؛ لذلك يقول: ﴿إنما أنا بشر يرد عليّ - يعني من الحق - فأقول: أنا لست كأحدكم، ويؤخذ مني فأقول: ما أنا إلا بشر مثلكم﴾. وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً في قصة عبد الله بن أم مكتوم، حينما انشغل عنه رسول الله ﷺ بكبار قريش، والمتأمل في هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله ﷺ عن شيء، فالكلام معه ميسور وأمر سهل، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم، ولديهم مع ذلك لدَد في خصومتهم للإسلام، والنبي ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه في جداولهم أملاً في أن يهدي الله بهم مَنْ دونهم.

إذاً: النبي ﷺ في هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب، وربه يعاتبه على ذلك، فهو عتاب لصالحه؛ له لا عليه. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (١٥٢).

وقال الطبراني: «قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ أي لِتُجْهَدَ نَفْسَكَ وتعب، وذلك أنه، ﷺ، لما نزل عليه الوحي اجتهد في العبادة، حتى إنه كان يُصلي على إحدى رجلَيْه لشدة قيامه وطوله، فأمره الله أن يُخَفِّفَ على نفسه، وذكر له أنه ما أنزل عليه القرآن ليتعب ذلك التعب، ولم يُنزلْهُ، ﴿إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾؛ قال مجاهد: «نزلت هذه الآية لِسَبَبٍ مَا كَانَ يَلْقَى النَّبِيُّ ﷺ مِنَ التَّعَبِ وَالسَّهَرِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ».

وقال الحسن: «هذا جوابٌ لِلْمُشْرِكِينَ، وذلك أن أبا جهل والنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ قَالَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَإِنَّكَ لَتَشْقَى، لما رَأَوْا مِنْ طُولِ عِبَادَتِهِ وَشِدَّةِ اجْتِهَادِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿بُعِثْتُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، قَالُوا: بَلْ أَنْتَ شَقِيٌّ، فَأَنزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وَلَكِنْ لِتَسْعَدَ وَتَنَالَ الْكَرَامَةَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». والشقاء في اللغة: احمرار ما شقَّ على النفس من التعب».

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ (١٥٣).

قال الشنقيطي «في قوله ﴿تَنْزِيلًا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب، ذكرها المفسرون. وأظهرها عندي أنه مفعول مطلق منصوب بـ«نزل» مضمرة، دل عليها قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ أي أنزله الله ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ﴾ الآية، أي فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ولا بقول كاهنٍ قليلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٤﴾ تنزيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٥٤)، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً ومعروفة، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٥٥) الآية، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١٥٦)، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١٥٧)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ في كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿١٥٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿١٥٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٥٨).

١٥٤ سورة الحاقة: ٤١ - ٤٣.

١٥٥ سورة الشعراء: ١٩٢.

١٥٦ سورة الزمر: ١.

١٥٧ سورة فصلت: ٢.

١٥٨ سورة الواقعة: ٧٧-٨٠.

قال ابن كثير: «قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، حدثنا معمر عن قتادة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: لا يمسّه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا، فإنه يمسّه المجوسى النجس، والمنافق الرجس، وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: (ما يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، وقال أبو العالية: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى: أنه ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُزُولُونَ﴾^(١٥٩)، وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو؛ مخافة أن يناله العدو، واحتجوا في ذلك بما رواه

الإمام مالك في «موطئه» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: ألا يمس القرآن إلا طاهر. وروى أبو داود، في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ولا يمس القرآن إلا طاهر﴾، وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص، وفي إسناد كل منهما نظر، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(١٦٠).

قال العلامة الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم، الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً

برب العالمين - جلّ وعلا - يهدي للتي هي أقوم. أي الطريق التي هي أسد وأعدل وأصوب، فـ «التي» نعت لموصوف محذوف. على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِلَ يجوز حذفه وفي النعت يقل
وقال الزجاج والكلبي والفراء: «للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله». وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدّها وأصوبها، ولو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكنّا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم، بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة. فمن ذلك توحيد الله جلّ وعلا: فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدّها، وهي توحيده جلّ وعلا في ربوبيته، وفي

عبادته، وفي أسمائه وصفاته. وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيدَه في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(١٦١) الآية، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(١٦٢)، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦٣) تجاهل من عارف أنه عبد مربوب، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾^(١٦٤)، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(١٦٥)، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع

^{١٦١} سورة الزخرف: ٨٧.

^{١٦٢} سورة يونس: ٣١.

^{١٦٣} سورة الشعراء: ٢٣.

^{١٦٤} سورة الإسراء: ١٠٢.

^{١٦٥} سورة النمل: ١٤.

إلا بإخلاص العبادة لله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١٦٦)، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني: توحيده جلّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، وهي مركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله، كائنة ما كانت، في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلْ آلَ اللَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(١٦٧). ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾^(١٦٨)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١٦٩)، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

^{١٦٦} سورة يوسف: ١٠٦.

^{١٦٧} سورة ص: ٥.

^{١٦٨} سورة محمد ﷺ: ١٩.

^{١٦٩} سورة النحل: ٣٦.

نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ^(١٧٠)، وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾^(١٧١)، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٧٢)، فقد أَمَرَ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن ما أُوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد. لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب، لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جلّ وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد يبنى على أصليين:

الأول: تنزيه الله جلّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم. كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١٧٣).

١٧٠ سورة الأنبياء: ٢٥.

١٧١ سورة الزخرف: ٤٥.

١٧٢ سورة الأنبياء: ١٠٨.

١٧٣ سورة الشورى: ١١.

والثاني: الإيـان بما وصف الله به نفسه. أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بكماله وجلاله. كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(١٧٤). ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلّ وعلا - على وجوب توحيده في عبادته. ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير. فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده. لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾^(١٧٥)، إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، فلما أقروا بربوبيته وبّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

^{١٧٤} سورة طه: ١١٠.^{١٧٥} سورة يونس: ٣١.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾^(١٧٦)، فلما اعترفوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾^(١٧٧)، فلما أقرُّوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾^(١٧٨)، فلما أقرُّوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾^(١٧٩) فلما صح الاعتراف وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(١٨٠)، فلما صح إقرارهم وبَّخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ

^{١٧٦} سورة المؤمنون: ٨٤-٨٥.

^{١٧٧} سورة المؤمنون: ٨٦-٨٧.

^{١٧٨} سورة المؤمنون: ٨٨-٨٩.

^{١٧٩} سورة الرعد: ١٦.

^{١٨٠} سورة الزخرف: ٨٧.

اللَّهُ»^(١٨١)، فلما صح اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: «فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ»، وقوله تعالى: «وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ»^(١٨٢)، فلما صح إقرارهم وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»، وقوله تعالى: «وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَّن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ»^(١٨٣)، فلما صح اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم بقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» ﴿٦٦﴾ «أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»^(١٨٤)، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم ألبته غيره: هو أن القادر على خلق السماوات والأرض وما ذكر معها، خير من جهاد لا يقدر على شيء. فلما تعين اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ»، ثم قال تعالى: «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ

١٨١ سورة العنكبوت: ٦١.

١٨٢ سورة العنكبوت: ٦٣.

١٨٣ سورة لقمان: ٢٥.

١٨٤ سورة النمل: ٥٩-٦٠.

قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا^(١٨٥)، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١٨٦)، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(١٨٧)، ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١٨٨)، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ

١٨٥ سورة النمل: ٦١.

١٨٦ سورة النمل: ٦٢.

١٨٧ سورة النمل: ٦٣.

١٨٨ سورة النمل: ٦٤.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، وقوله: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ»^(١٨٩)، والآيات بنحو هذا كثيرة جداً. ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار. لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة. نحو قوله تعالى: «أَفِي اللَّهِ شَكٌّ»^(١٩٠)، وقوله: «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا»^(١٩١) وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار. لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه. والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك، بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر.

^{١٨٩} سورة الروم: ٤٠.^{١٩٠} سورة إبراهيم: ١٠.^{١٩١} سورة الأنعام: ١٦٤.

ومن هدي القرآن لِّلتي هي أقوم؛ جعله الطلاق بيد الرجل، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١٩٢) الآية، ونحوها من الآيات. لأن النساء مزارع وحقول، تبذر فيها النطف كما يبذر الحب في الأرض. وكما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾^(١٩٣). ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق: أن الزارع لا يرغم على الازدراع في حقل لا يرغب الزراعة فيه، لأنه يراه غير صالح له، والدليل الحسي القاطع على ما جاء به القرآن من أن الرجل زارع، والمرأة مزرعة أن آلة الازدراع مع الرجل، فلو أرادت المرأة أن تجامع الرجل وهو كاره لها، لا رغبة له فيها لم ينتشر، ولم يقم ذكره إليها، فلا تقدر منه على شيء، بخلاف الرجل؛ فإنه قد يرغمها وهي كارهة فتحمل وتلد. كما قال أبو كبير الهذلي:

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل

فدلت الطبيعة والخلقة على أنه فاعل وأنها مفعول به، ولذا أجمع العقلاء على نسبة الولد له لا لها، وتسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس، كما لا يخفى.

^{١٩٢} سورة الطلاق: ١.

^{١٩٣} سورة البقرة: ٢٢٣.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم؛ إباحته تعدد الزوجات إلى أربع، وأن الرجل إذا خاف عدم العدل بينهن، لزمه الاقتصار على واحدة، أو ملك يمينه، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(١٩٤)، ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها هي إباحة تعدد الزوجات لأمر محسوسة يعرفها كلُّ العقلاء. منها - أن المرأة الواحدة تحيض وتمرض، وتنفس، إلى غير ذلك من العوائق المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو حبس عليها في أحوال أضرارها لعطلت منافعه باطلاً في غير ذنب. ومنها أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً من النساء في أقطار الدنيا، وأكثر تعرضاً لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة. فلو قصر الرجل على واحدة، ل بقي عدد ضخم من النساء محروماً من الزواج، فيضطرون إلى ركوب الفاحشة، فالعدول عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق والانحطاط إلى درجة البهائم في عدم الصيانة والمحافظة

على الشرف والمروءة والأخلاق! فسبحان الحكيم الخبير! كتاب
أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ومنها أن الإناث كلهن
مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على القيام بلوازم
الزواج لفقرهم. فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له
من النساء. لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على
لوازم النكاح، فلو قصر الواحد على الواحدة، لضاع كثير من المستعدات
للزواج أيضاً بعدم وجود أزواج. فيكون ذلك سبباً لضیاع الفضيلة،
وتفشي الرذيلة والانحطاط الخلقي، وضیاع القيم الإنسانية، كما هو
واضح. فإن خاف الرجل ألا يعدل بينهن، وجب عليه الاقتصار على
واحدة، أو ملك يمينه. لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ﴾^(١٩٥) الآية، والميل بالفضل في الحقوق الشرعية بينهن لا
يجوز، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾^(١٩٦)، أما
الميل الطبيعي بمحبة بعضهن أكثر من بعض، فهو غير مستطاع دفعه
للشرف، لأنه انفعال وتأثر نفساني لا فعل، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَنْ

١٩٥ سورة النحل: ٩٠.

١٩٦ سورة النساء: ١٢٩.

تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ^(١٩٧) الآية. وما يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام، من أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة، لأنه كلما أَرْضَى إحدى الضرتين سَخِطَت الأخرى. فهو بين سخطتين دائماً، وأن هذا ليس من الحكمة. فهو كلام ساقط، يظهر سقوطه لكل عاقل. لأن الخصام والمشغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه ألبتة، فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينه وبين زوجته الواحدة. فهو أمر عادي ليس له كبير شأن، وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرناها في تعدد الزوجات من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه أعداء الإسلام، كلا شيء، لأن المصلحة العظمى يقدم جلبها على دفع المفسدة الصغرى.

فلو فرضنا أن المشغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلاام قلب الزوجة الأولى بالضررة مفسدة، لقدمت عليها تلك المصالح الراجحة التي ذكرنا، كما هو معروف في الأصول. قال الشيخ عبد الله

العلوي الشنقيطي في «مراقي السعود»، عاطفاً على ما تلغى فيه المفسدة
المرجوحة في جنب المصلحة الراجحة:

أورجح الإصلاح كالأسارى تُفدى بما ينفع للنصارى
وانظر تدلي دوالي العنب في كل مشرق وكل مغرب
ففداء الأسارى مصلحة راجحة، ودفع فدائهم النافع للعدو مفسدة
مرجوحة، فتقدم عليها المصلحة الراجحة. أما إذا تساوت المصلحة
والمفسدة، أو كانت المفسدة أرجح؛ كفداء الأسارى بسلاح يتمكن
بسببه العدو من قتل قدر الأسارى أو أكثر من المسلمين، فإن المصلحة
تلغى لكونها غير راجحة، كما قال في «المراقي»:

أخرم مناسباً بمفسد لزم للحكم وهو غير مرجوح علم
وكذلك العنب تعصر منه الخمر وهي أم الخبائث، إلا أن مصلحة وجود
العنب والزبيب والانتفاع بهما في أقطار الدنيا مصلحة راجحة على
مفسدة عصر الخمر منها، فألغيت لها تلك المفسدة المرجوحة. واجتماع
الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون سبباً لحصول الزنى، إلا أن
التعاون بين المجتمع من ذكور وإناث مصلحة أرجح من تلك المفسدة،

ولذا لم يقل أحد من العلماء إنه يجب عزل النساء في محلٍّ مستقل عن الرجال، وأن يجعل عليهن حصن قوي لا يمكن الوصول إليهن معه، وتجعل المفاتيح بيد أمين معروف بالتقى والديانة، كما هو مقرر في الأصول. فالقرآن أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها، فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر. وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع. والعلم عند الله تعالى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم، تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٩٨)، وقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه يبين لخلق هذا البيان الذي من جملة تفضيل

الذكر على الأنثى في الميراث لئلا يضلوا، فمن سوى بينهما فيه فهو ضال قطعاً. ثم بين أنه سبحانه أعلم بالحكم والمصالح وبكل شيء من خلقه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقال عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(١٩٩) الآية. ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعد لها تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى، كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾^(٢٠٠) أي الرجال ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ أي النساء، وقوله عز وجل: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾^(٢٠١) وذلك لأن الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، والأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس. وقد أشار جل وعلا إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٢٠٢) لأن الله أنكر عليهم في هذه الآية الكريمة أنهم نسبوا له ما لا يليق به من الولد، ومع ذلك نسبوا له أخس

١٩٩ النساء: ١١.

٢٠٠ سورة النساء: ٣٤.

٢٠١ سورة النساء: ٢٢٨.

٢٠٢ سورة الزخرف: ١٨.

الولدين وأنقصهما وأضعفهما. ولذلك ينشأ في الحلية أي الزينة من أنواع الحلي والحلل ليَجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي والحلل، وهو الأنثى، بخلاف الرجل؛ فإن كمال ذكوره يكفيه على الحلي. قال الشاعر:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا
وقال تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾^(٢٠٣) وإنما كانت هذه القسمة ضيزى - أي غير عادلة - لأن الأنثى أنقص من الذكر خلقة وطبيعة، فجعلوا هذا النصيب الناقص لله جلّ وعلا سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً! وجعلوا الكامل لأنفسهم كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾^(٢٠٤)، أي وهو البنات. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢٠٥) إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٢٠٦)، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ وهو

٢٠٣ سورة النجم: ٢١-٢٢.

٢٠٤ سورة النحل: ٦٢.

٢٠٥ سورة النحل: ٨٥.

٢٠٦ سورة النحل: ٥٩.

الأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢٠٧). وكل هذه الآيات القرآنية تدل على أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة والطبيعة، وأن الذكر أفضل وأكمل منها، قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢٠٨)، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾^(٢٠٩) الآية، والآيات الدالة على تفضيله عليها كثيرة جداً. ومعلوم عند عامة العقلاء: أن الأنثى متاع لا بد له ممن يقوم بشؤونه ويحافظ عليه. وقد اختلف العلماء في التمتع بالزوجة: هل هو قوت؟ أو تفكه؟ وأجرى علماء المالكية على هذا الخلاف حكم إلزام الابن تزويج أبيه الفقير؛ قالوا: فعلى أن النكاح قوت فعليه تزويجه؛ لأنه من جملة القوت الواجب له عليه. وعلى أنه تفكه لا يجب عليه، على قول بعضهم. فانظر شبه النساء بالطعام والفاكهة عند العلماء، وقد جاءت السنة الصحيحة بالنهي عن قتل النساء والصبيان في الجهاد. لأنهما من جملة مال المسلمين الغانمين. بخلاف الرجال فإنهم يقتلون.

^{٢٠٧} سورة الزخرف: ١٧.

^{٢٠٨} الصافات: ١٥٣، ١٥٤.

^{٢٠٩} سورة الإسراء: ٤٠.

ومن الأدلة على أفضلية الذكر على الأنثى: أن المرأة الأولى خلقت من ضلع الرجل الأول، فأصلها جزء منه. فإذا عرفت من هذه الأدلة: أن الأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار، يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقته وطبيعته، يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته. ليجلب له ما لا يقدر على جلبه من النفع، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر. كما قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣١٠)، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه لما كانت الحكمة البالغة، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص مقوماً عليه من قبل القوي الكامل، اقتضى ذلك أن يكون الرجل ملزماً بالإنفاق على نسائه، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة. كما قال تعالى: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٣١١)، ومال الميراث ما مسحاً في تحصيله عرقاً، ولا تسبباً فيه ألبتة، وإنما هو تمليك من الله ملكهما إياه تملياً جبرياً. فاقترضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث وإن أدليا بسبب واحد؛ لأن الرجل مترقب

٣١٠ سورة النساء: ٣٤.

٣١١ سورة النساء: ٣٤.

للقص دائماً بالإِنفاق على نسائه، وبذل المهور لهن، والبذل في نوائب الدهر. والمرأة مترقبة للزيادة بدفع الرجل لها المهر، وإِنفاقه عليها وقيامه بشؤونها. وإِثارة مترقب القص دائماً على مترقب الزيادة دائماً لجبر بعض نقصه المترقب، حكمته ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي. ولذا قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، ولأجل هذه الحكم التي بينا بها فضل المرأة في جميع أحوالها، وخصه بالرسالة والنبوة والخلافة دونها، وملّكه الطلاق دونها، وجعله الولي في النكاح دونها، وجعل انتساب الأولاد إليه لا إليها، وجعل شهادته في الأموال بشهادة امرأتين في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾^(٢١٢)، وجعل شهادته تقبل في الحدود والقصاص دونها، إلى غير ذلك من الفوارق الحسية والمعنوية والشرعية بينهما. ألا ترى أن الضعف الخلقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجل، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليهن القلوب. قال جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً

وقال ابن الدمينه:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب
فالأول تشبه بهن بضعف أركانهن، والثاني بعجزهن عن الإبانة في
الخصام. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، ولهذا التباين في
الكمال والقوة بين النوعين، صح عن النبي ﷺ لعن من تشبه منهما
بالآخر. قال البخاري في صحيحه: ﴿عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء
بالرجال﴾، ومعلوم أن من لعنه رسول الله ﷺ فهو ملعون في كتاب الله.
لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (سورة الحشر: ٧). الآية.
كما ثبت عن ابن مسعود رضي الله. فلتعلمن أيتها النساء اللاتي تحاولن
أن تكن كالرجال في جميع الشؤون أنكن مترجلات متشبهات بالرجال،
وأنكن ملعونات في كتاب الله على لسان رسوله ﷺ. وكذلك المختشون

المتشبهون بالنساء، فهم أيضاً ملعونون في كتاب الله على لسانه ﷺ، ولقد صدق من قال فيهم:

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجاب
واعلم، وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه، أن هذه الفكرة الكافرة،
الخاطئة الخاسئة، المخالفة للحس والعقل وللوحي السماوي وتشريع
الخالق البارئ من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين، فيها
من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحد إلا
من أعمى الله بصيرته. وذلك لأن الله جلّ وعلا جعل الأنثى بصفاتها
الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني، صلاحاً
لا يصلح له غيرها، كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد،
وخدمة البيت، والقيام على شؤونه من طبخ وعجن وكنس ونحو ذلك.
وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر
وصيانة وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا
تقل عن خدمة الرجل بالاكْتساب. فزعم أولئك السفلة الجهلة من
الكفار وأتباعهم: أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما

للرجل، مع أنها في زمن حملها ورضاعها ونفاسها، لا تقدر على مزاوله أي عمل فيه أي مشقة، كما هو مشاهد. فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة: من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهيئة الأكل والشرب للرجل إذا جاء من عمله. فلو أجروا إنساناً يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فراراً منه، فعادت النتيجة في حافرتها على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين! لأن المرأة متاع، هو خير متاع الدنيا، وهو أشد أمتعة الدنيا تعرضاً للخيانة؛ لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكراً. فتعريضها لأن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل. وكذلك إذا لمس شيئاً من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك اللمس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية. ولا سيما إذا كان القلب فارغاً من خشية الله تعالى، فاستغل نعمة ذلك البدن خيانة وغدراً. وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالباً سبباً لما هو شر منه، كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام

وتركت الصيانة، فصارت نساؤها يخرجن متبرجات عاريات الأجسام، إلا ما شاء الله، لأن الله نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! نعوذ بالله من مسخ الضمير والذوق، ومن كل سوء، ودعوى الجهلة السفلة: أن «داوم خروج النساء بادية الرؤوس والأعناق والمعاصم، والأذرع والسوق، ونحو ذلك يذهب إثارة غرائز الرجال؛ لأن كثرة الإمساس تذهب الإحساس» كلام في غاية السقوط والخسة، لأن معناه: إشباع الرغبة مما لا يجوز، حتى يزول الأرب منه بكثرة مزاولته، وهي دعوى باطلة، فالدوام لا يذهب إثارة الغريزة، باتفاق العقلاء، لأن الرجل يمكنه مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادهما، ولا تزال ملامسته لها ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته، كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر، ولكن:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد أمر رب السماوات والأرض خالق هذا الكون ومدبر شؤونه العالم بخفايا أموره وبكل ما كان وما سيكون، بغض البصر عما لا يحل، فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ

أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ^(٢١٣)، ونهى المرأة أن تضرب برجلها لتسمع الرجال صوت خلخالها في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾^(٢١٤)، ونهاهن عن لين الكلام. لئلا يطمع أهل الخنى فيهن، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٢١٥)، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق المقام في مسألة الحجاب في «سورة الأحزاب».

ومن هدى القرآن للتي هي أقوم: ملك الرقيق المعبر عنه في القرآن بملك اليمين في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢١٦)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(٢١٧)، وكذلك في سورة «المعارج»، وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ

^{٢١٣} سورة النور: ٣٠، ٣١.

^{٢١٤} سورة النور: ٣١.

^{٢١٥} سورة الأحزاب: ٣٢.

^{٢١٦} سورة النساء: ٣.

^{٢١٧} سورة المؤمنون: ٥، ٦.

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^(٢١٨)، وقوله:
 ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ^(٢١٩)، وقوله
 جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^(٢٢٠)،
 وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ
 أَغْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ^(٢٢١)، وقوله: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ إِنَّا
 أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا
 أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ^(٢٢٢)، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا نِسَاءِبِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُنَّ^(٢٢٣)، وقوله: ﴿أَوْ نِسَاءِبِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ^(٢٢٤)، وقوله:
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ^(٢٢٥)، وقوله: ﴿فَمَا
 الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ^(٢٢٦)، وقوله: ﴿هَلْ

٢١٨ سورة النساء: ٣٦.

٢١٩ سورة النساء: ٢٤.

٢٢٠ سورة النور: ٣٣.

٢٢١ سورة الأحزاب: ٥٢.

٢٢٢ سورة الأحزاب: ٥٠.

٢٢٣ سورة الأحزاب: ٥٥.

٢٢٤ سورة النور: ٣١.

٢٢٥ سورة النساء: ٢٥.

٢٢٦ سورة النحل: ٧١.

لَكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ^(٢٢٧)، إلى غير ذلك من الآيات. فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات ونحوها: ملك الرقيق بالرق. ومن الآيات الدالة على ملك الرقيق قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا^(٢٢٨)، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ^(٢٢٩)، ونحو ذلك من الآيات. وسبب الملك بالرق: هو الكُفر، ومحاربة الله ورسوله. فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم وجميع قواهم وما أعطاهم الله، لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار، جعلهم ملكاً لهم بالسبي، إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء، لما في ذلك من المصلحة على المسلمين. وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، وذلك أن الله جلّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا^(٢٣٠)، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، كما بين: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا

٢٢٧ سورة الروم: ٢٨.

٢٢٨ سورة النحل: ٧٥.

٢٢٩ سورة البقرة: ٢٢١.

٢٣٠ سورة الذاريات: ٥٦، ٥٧.

نِعْمَةُ اللَّهِ لَا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ^(٢٣١)، وفي الآية الأخرى:
 ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ^(٢٣٢)، وجعل
 لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم
 مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
 وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٢٣٣)، فتمرد الكفار على ربهم وطغوا
 وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا،
 واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته وارتكاب ما
 يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذه أكبر جريمة
 يتصورها الإنسان، فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير، جلّ وعلا،
 عقوبة شديدة تناسب جريمتهم، فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام
 الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشراءهم،
 وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً
 كلياً، فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما
 يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا

٢٣١ سورة إبراهيم: ٣٤.

٢٣٢ سورة النحل: ١٨.

٢٣٣ سورة النحل: ٧٨.

يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيحاء عليهم في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢٣٤). وتشوف الشارع تشوفاً شديداً للحرية والإخراج من الرق، فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾^(٢٣٥)، ورغب في الإعتاق ترغيباً شديداً. ولو فرضنا - ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾^(٢٣٦) أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام - قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها، التي يظهر لها أن بهما صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة. ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع

^{٢٣٤} سورة النساء: ٣٦.

^{٢٣٥} سورة النور: ٣٣.

^{٢٣٦} سورة النحل: ٦٠.

تصرفاته وجميع منافعه. فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل. والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله، الذي شرعه ليسير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة والرخاء والعدالة والمساواة في الحقوق الشرعية، وتتنظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسمأها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢٣٧) فعاقبه الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف. ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك، فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال؟ فالجواب: أن القاعدة المعروفة عند العلماء والعقلاء كافة: أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها؛ فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي: ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع، وهو الحكيم الخبير. فإذا استقر هذا الحق وثبت، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل

الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه، كما هو معلوم عند العقلاء. نعم، يحسن بالمالك ويحمل به: أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه، وفتح له الأبواب الكثيرة كما قدمنا - فسبحان الحكيم الخبير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢٣٨) فقله ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار وقوله ﴿وَعَدْلًا﴾ أي في الأحكام. ولا شك أن من ذلك العدل: الملك بالرق وغيره من أحكام القرآن.

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم ومن هدى القرآن للتي هي أقوم: القصاص. فإن الإنسان إذا غضب وهم بأن يقتل إنساناً آخر فتذكر أنه إن قتله قتل به، خاف العاقبة فترك القتل. فحيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو؛ لأنه لم يقتل فيُقتل قصاصاً. فقتل القاتل يحيا به ما لا يعلمه إلا الله كثرة. قال تعالى وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٢٣٩)، ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديماً

٢٣٨ سورة الأنعام: ١١٥.

٢٣٩ سورة البقرة: ١٧٩.

وحديثاً قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب الله. لأن القصاص رادع عن جريمة القتل، كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفاً. وما يزعّمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيُحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه، فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل! كله كلام ساقط، عار من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن السفهاء يكثر منهم القتل. فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: قطع يد السارق المنصوص عليه بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنْ أَللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢٤٠)، وقال النبي ﷺ: ﴿لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا﴾، وجمهور العلماء على أن القطع من الكوع، وأنها اليمنى. وكان ابن مسعود وأصحابه يقرؤون «فاقطعوا أيماهما». والجمهور أنه إن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى، ثم إن سرق فيده اليسرى، ثم إن

سرق فرجله اليمنى، ثم يعزر. وقيل يقتل. كما جاء فى الحديث: ﴿ولا قطع إلا فى رُبْع دينار أو قيمته أو ثلاثة دراهم﴾، كما هو معروف فى الأحاديث.

وليس قصدنا هنا تفصيل أحكام السرقة، وشروط القطع، كالنصاب والإخراج من حرز. ولكن مرادنا أن نبين أن قطع يد السارق من هدى القرآن للتي هي أقوم، وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة، التي خلقها الله لتبطش وتكتسب فى كل ما يرضيه من امتثال أوامره واجتناب نهيه، والمشاركة فى بناء المجتمع الإنسانى، فمدت أصابعها الخائنة، إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها فى الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قدرة، ساعية فى الإخلال بنظام المجتمع؛ إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة، كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن، فإنه يزال بالكلية إبقاء على البدن، وتطهيراً له من المرض. ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة. قال البخارى فى صحيحه - باب

الحدود كفارة: حدثنا محمد بن يوسف أخبرنا ابن عيينة عن الزُّهري، عن أبي إدريس الخولاني ﴿عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ في مجلس، فقال: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه؛ إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه﴾. وقوله ﷺ في هذا الحديث الصحيح ﴿فَهُوَ كَفَّارَتُهُ﴾ نص صريح في أن الحدود تطهر المرتكبين لها من الذنب، والتحقيق في ذلك ما حققه بعض العلماء من أن حقوق الله يطهر منها بإقامة الحد. وحق المخلوق يبقى، فارتكاب جريمة السرقة مثلاً يطهر منه بالحد، والمؤاخذه بالمال تبقى، لأن السرقة علة موجبة حكمين: وهما القطع والغرم. قال في مراقي السعود:

وذاك في الحكم الكثير أطلقه كالقطع مع غرم نصاب السرقة مع أن جماعة من أهل العلم قالوا: لا يلزمه الغرم مع القطع، لظاهر الآية الكريمة: فَإِنِهَا نَصَّتْ عَلَى الْقَطْعِ ولم تذكر غرمًا. وقال جماعة: يغرم المسروق مطلقاً، فات أو لم يفت، معسراً كان أو موسراً. ويتبع به ديناً إن

كان معسراً. وقال جماعة: يرد المسروق إن كان قائماً، وإن لم يكن قائماً رد قيمته إن كان موسراً، فإن كان معسراً فلا شيء عليه ولا يتبع به ديناً. والأول مذهب أبي حنيفة. والثاني مذهب الشافعي وأحمد. والثالث مذهب مالك. وقطع السارق كان معروفاً في الجاهلية فأقره الإسلام. وعقد ابن الكلبي باباً لمن قطع في الجاهلية بسبب السرقة، فذكر قصة الذين سرقوا غزال الكعبة فقطعوا في عهد عبد المطلب. وذكر ممن قطع في السرقة عوف بن عبد بن عمرو بن مخزوم، ومقيس بن قيس بن عدي بن سهم وغيرهما، وأن عوفاً السابق لذلك.

وكان من هدايا الكعبة صورة غزالين من ذهب، أهدتهما الفرس لبيت الله الحرام، كما عقده البدوي الشنقيطي في نظم عمود النسب بقوله:

ومن خباياه غزالا ذهبٍ أهدتهما الفرس لبيت العرب

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وقد قُطع السارق في الجاهلية، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام. فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ في الإسلام من الرجال الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف. ومن النساء مرة بنت

سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم. وقطع أبو بكر يد اليماني الذي سرق العقد. وقطع عمر يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة. قال مقيله، عفا الله عنه: ما ذكره القرطبي رحمه الله من أن المخزومية التي سرت فقطع النبي ﷺ يدها أولاً هي مرة بنت سفيان خلاف التحقيق. والتحقيق أنها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهي بنت أخي أبي سلمة بن عبد الأسد الصحابي الجليل، الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، قتل أبوها كافراً يوم بدر، قتله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقطع النبي ﷺ يدها وَقَعَ في غزوة الفتح. وأما سرقة أم عمرو بنت سفيان بن عبد الأسد ابنة عم المذكورة، وَقَطَعَ النبي ﷺ يدها ففي حجة الوداع، بعد قصة الأولى بأكثر من ستين. فإن قيل: أخرج الشيخان في صحيحهما، وأصحاب السنن وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قَطَعَ في مجن ثمنه ثلاثة دراهم، وفي لفظ بعضهم قيمته ثلاثة دراهم. وأخرج الشيخان في صحيحهما، وأصحاب السنن، غير ابن ماجه، وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها: ﴿أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ فِي

ربع دينار فصاعداً، والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً، مع أنه عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار. فتكون دية اليد خمسمئة دينار. فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار؟ وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك.

فالجواب: أن هذا النوع من اعتراضات الملحدّين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، هو الذي نظمه المعري بقوله:

يدٌ بخمسٍ مئتينٍ عسجدٍ وُدِيتَ ما بالها قطعت في ربع دينار
وللعلماء عنه أجوبه كثيرة نظماً ونثراً، منها قول القاضي عبد الوهاب مجيباً
له في بحره ورويه:

عز الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة، فافهم حكمة الباري
وقال بعضهم: لما خانت هانت. ومن الواضح: أن تلك اليد الخسيصة
الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير
كثمن المجن والأترجة، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك
الشيء القليل، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثم إنا أجبنا عن هذا

الطعن بأن الشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل، فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة. فانظر ما يدعو إليه القرآن: من مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق، وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً، يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمئة درجة إلى ربع درجة. فانظر هذا الخط العظيم لدرجته، بسبب ارتكاب الرذائل. وقد استشكل بعض الناس قطع يد السارق خاصة، دون غيرها من الجنايات على الأموال، كالغصب والانتهاب، ونحو ذلك. قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها، من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدى السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر. ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد. ثم لما خانت هانت. وفي ذلك إثارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في بيته المذكور آنفاً، ورد القاضي عبد الوهاب المالكي عليه، وشرح ذلك: أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي. ولو

كان نصاب القطع خمسمئة دينار لكثرت الجنايات على الأموال. فظهرت الحكمة في الجانبين، وكان في ذلك صيانة من الطرفين. وقد عسر فهم المعنى المقدم ذكره في الفرق بين السرقة وبين النهب ونحوه على بعض منكري القياس، فقال: القطع في السرقة دون الغصب وغيره غير معقول المعنى؛ فإن الغصب أكثر هتكاً للحرمة من السرقة، فدل على عدم اعتبار القياس، لأنه إذا لم يعمل به في الأعلى فلا يعمل به في المساوي. وجوابه - أن الأدلة على العمل بالقياس أشهر من أن يتكلف لإيرادها. وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك في كتاب الأحكام. اهـ. بواسطة نقل ابن حجر في فتح الباري.

قال مقيده عفا الله عنه: الفرق بين السرقة وبين الغصب ونحوه - الذي أشار إليه المازري - ظاهر، وهو أن النهب والغصب ونحوهما قليل بالنسبة إلى السرقة، ولأن الأمر الظاهر غالباً توجد البينة عليه بخلاف السرقة، فإن السارق إنما يسرق خفية بحيث لا يطلع عليه أحد، فيعسر الإنصاف منه، فغلظت عليه الجناية ليكون أبلغ في الزجر، والعلم عند الله تعالى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: رجم الزاني المحصن ذكراً كان أو أنثى، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى. أما الرجم فهو منصوص بآية منسوخة التلاوة باقية الحكم، وهي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألّبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم». وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم. فدل القرآن في آيات محكمة، كقوله: «يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ»^(٢٤١) الآية، وقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ»^(٢٤٢) الآية، على ثوابت حكم الرجم في شريعة نبينا ﷺ، لزمه في كتابنا للمعرض عنه كما تقدم. وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي رضي الله عنه، حين رجم امرأة يوم الجمعة: «رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»، لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باق بعد نسخ تلاوتها. ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه في حديثه الصحيح المشهور: «فكان مما أنزل إليه آية الرجم، فقرأنها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده».

٢٤١ المائدة: ٤١.

٢٤٢ المائدة: ٢٣.

والمحددون يقولون: إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان، لقصور إدراكهم عن فهم حكم الله البالغة في تشريعه. والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى، لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقدير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني. والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله. ومن كان كذلك فهو نجس قدر لا يصلح للمصاحبة. فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع. ويظهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفضع قتلة. لأن جريمته أفضع جريمة، والجزاء من جنس العمل.

وقد دل المطهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعاً يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء. فدل ذلك أن ذلك الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حراماً قتل صاحبه المحصن، لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب

الزنى، ويبقى عليه حق الآدمي؛ كالزوج إن زنى بمتزوجة، وحق الأولياء في إلحاق العار بهم، كما أشرنا إليه سابقاً. وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: ما أقبح ذلك الفعل حلالاً! فكيف به وهو حرام! وغلظ جلّ وعلا عقوبة المحصن بالرجم تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمئة جلدة. لأن المحصن قد ذاق عُسَيْلَةَ النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن. فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم، كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم.

وأما جلد الزاني البكر ذكراً كان أو أنثى مئة جلدة، فهذا منصوص بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٢٤٣) الآية. لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى كما تقدّم. وتشريع الحكيم الخبير - جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاءً وفاقاً.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن التقدم لا ينافي التمسك

بالدين، فما خيَّله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام: من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام، باطل لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين. ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢٤٤)، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهِ الْحَدِيدِ﴾  ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾^(٢٤٥). فقوله: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف. وداود من الأنبياء المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ﴾^(٢٤٦)، وقد قال تعالى مخاطباً لنبينا ﷺ وعليهم بعد أن ذكرهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾^(٢٤٧). وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس رضي الله

^{٢٤٤} سورة الأنفال: ٦٠.^{٢٤٥} سورة سبأ: ١٠-١١.^{٢٤٦} سورة الأنعام: ٨٤.^{٢٤٧} الأنعام: ٩٠.

عنهما من أين أخذت السجدة في «ص»؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ. فدل ذلك على أنا مخاطبون بما تضمنته الآية مما أمر به داود، فعلينا أن نستعد لكفاح العدو مع التمسك بديننا، وانظر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، فهو أمر جازم بإعداد كل ما في الاستطاعة من قوة ولو بلغت القوة من التطور ما بلغت. فهو أمر جازم بمسايرة التطور في الأمور الدنيوية، وعدم الجمود على الحالات الأول إذا طرأ تطور جديد. ولكن كل ذلك مع التمسك بالدين. ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَافِقَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَافِقَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾^(٢٤٨). فصلاة الخوف المذكورة في هذه الآية الكريمة تدل على لزوم الجمع بين مكافحة العدو، وبين القيام بما شرعه الله جلّ وعلا من دينه. فأمره تعالى في هذه الآية بإقامة الصلاة في وقت التحام الكفاح المسلح يدل على ذلك أيضاً دلالة

في غاية الوضوح، وقد قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢٤٩) فأمره في هذه الآية الكريمة بذكر الله كثيراً عند التحام القتال يدل على ذلك أيضاً دلالة واضحة. فالكفار خيلوا للضعاف العقول أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين والسمت الحسن والأخلاق الكريمة تباين مقابلة؛ كتباين النقيضين، كالعدم والوجود، والنفي والإثبات، أو الضدين كالسواد والبياض، والحركة والسكون، أو المتضائقين كالأبوة والبنوة، والفوق والتحت، أو العدم والملكة، كالبصر والعمى. فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، وكذلك الحركة والسكون مثلاً، وكذلك الأبوة والبنوة، فكل ذات ثبتت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها، بحيث يكون شخص أباً وابناً لشخص واحد، كاستحالة اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة، أو الحركة والسكون في جرم، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان. فخیلوا لهم أن التقدم والتمسك بالدين متباينان تباين مقابلة، بحيث يستحيل اجتماعهما. فكان من نتائج ذلك انحلالهم من الدين رغبة في التقدم،

فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

والتحقق أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين - بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن نصوص الكتاب والسنة - إنما هي تباين المخالفة، وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها تباين حقيقة الآخر، ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلاً في ذات أخرى كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة. فحقيقة البياض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج. وكذلك الكلام والقعود فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً في وقت واحد. وهكذا. فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم، بالنظر إلى حكم العقل من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز عقلاً أن يكون بارداً كالثلج، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً، فكذلك التمسك بالدين يجوز عقلاً أن يكون متقدماً. إذ لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، مشغولاً في جميع الميادين التقدمية كما لا

يخفى، وكما عرفه التاريخ للنبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان. أما بالنظر إلى نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾^(٢٥٠)، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٥١)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢٥٢)، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢٥٣)، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢٥٤)، وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٢٥٥)، ونحو ذلك من الآيات وما في معناها من الأحاديث، فإن النسبة بين التمسك بالدين والتقدم، كالنسبة بين الملزوم ولازمه. لأن التمسك بالدين ملزوم للتقدم، بمعنى أنه يلزم عليه التقدم، كما صرحت به الآيات المذكورة. ومعلوم أن النسبة بين الملزوم ولازمه لا تعدو أحد أمرين: إما

٢٥٠ سورة الحج: ٤٠.

٢٥١ سورة الروم: ٤٧.

٢٥٢ سورة الصافات: ١٧١، ١٧٣.

٢٥٣ سورة المجادلة: ٢١.

٢٥٤ سورة غافر: ٥١.

٢٥٥ سورة التوبة: ١٤.

أن تكون المساواة أو الخصوص المطلق، لأن الملزوم لا يمكن أن يكون أعم من لازمه. وقد يجوز أن يكون مساوياً له أو أخص منه، ولا يتعدى ذلك؛ ومثال ذلك: الإنسان، فإنه ملزوم للبشرية والحيوانية، بمعنى أن الإنسان يلزم على كونه إنساناً أن يكون بشراً وأن يكون حيواناً، وأحد هذين اللازمين مساو له في الماصدق وهو البشر. والثاني أعم منه ماصداً وهو الحيوان، فالإنسان أخص منه خصوصاً مطلقاً كما هو معروف. فانظر كيف خيلوا لهم أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافي الذي بين النقيضين والضدين. وأطاعوهم في ذلك لسذاجتهم وجهلهم وعمى بصائرهم، فهم ما تقولوا على الدين الإسلامى ورموه بما هو منه بريء إلا لينفروا منه ضعاف العقول ممن ينتمى للإسلام، ليتمكنهم الاستيلاء عليهم، لأنهم لو عرفوا الدين حقاً واتبعوه لفعلوا بهم ما فعل أسلافهم بأسلافهم، فالدين هو هو، وصلته بالله هي هي، ولكن المنتسبين إليه في جل أقطار الدنيا تنكروا له، ونظروا إليه بعين المقت والازدراء. فجعلهم الله أرقاء للكفرة الفجرة. ولو راجعوا دينهم لرجع لهم عزهم ومجدهم، وقادوا جميع أهل الأرض. وهذا مما لا شك فيه:

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ (٢٥٦).

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم، بيانه أنه كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية. «ولما قال الكفار للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة، من قتلها؟ فقال لهم: «الله قتلها»، فقالوا له: ما ذبحتم بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون إنه حرام! فأنتم إذن أحسن من الله؟! فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (٢٥٧)، وحذف الفاء من قوله إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ يدل على قسم محذوف، على حد قوله في الخلاصة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم إذ لو كانت الجملة جواباً للشرط لاقرنت بالفاء، على حد قوله أيضاً:

٢٥٦ سورة محمد ﷺ: ٤.

٢٥٧ سورة الأنعام: ١٢١.

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل
فهو قسم من الله جلّ وعلا أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل
الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ
الله مرتكبه يوم القيامة بقوله:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ﴾^(٢٥٨) لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته، وقال
تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
مَّرِيدًا﴾^(٢٥٩) أي ما يعبدون إلا شيطاناً، وذلك باتباعهم تشريعه. وقال:
﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُ هُمْ﴾^(٢٦٠)
الآية، فسماهم شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى. ونقل عن
خليله قوله: ﴿يَأْتِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾^(٢٦١) الآية، أي بطاعته في الكفر
والمعاصي. ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾^(٢٦٢) الآية، بين له أن معنى ذلك أنهم

٢٥٨ سورة يس: ٦٠.

٢٥٩ سورة النساء: ١١٧.

٢٦٠ سورة الأنعام: ١٣٧.

٢٦١ سورة مريم: ٤٤.

٢٦٢ سورة التوبة: ٣١.

أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم. والآيات بمثل هذا كثيرة.

والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدّعي الإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٢٦٣)، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢٦٤)، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٢٦٥).

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم، هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام. لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا

^{٢٦٣} سورة النساء: ٦٠.

^{٢٦٤} سورة المائدة: ٤٤.

^{٢٦٥} سورة الأنعام: ١١٤.

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك، بساقلك. كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: ﴿إِنْ مَثَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطِفِهِمْ وَتَوَادِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى﴾، ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾^(٢٦٦) الآية، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله: ﴿لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾^(٢٦٧) أي بإخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢٦٨) الآية، أي إخوانكم على أصح التفسيرين وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾^(٢٦٩) الآية، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات. ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: ﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَجِبَ لِأَخِيهِ مَا يَجِبُ لِنَفْسِهِ﴾.

^{٢٦٦} سورة البقرة: ٨٤.

^{٢٦٧} سورة النور: ١٢.

^{٢٦٨} سورة الحجرات: ١١.

^{٢٦٩} سورة البقرة: ١٨٨.

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقة هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٢٧٠)، إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢٧١) الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٢٧٢)، وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٢٧٣) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام - كالعصبية المعروفة بالقومية - لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين. ومن أصرح الأدلة في ذلك: ما رواه البخاري في صحيحه قال: باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

^{٢٧٠} سورة المجادلة: ٢٢.

^{٢٧١} سورة التوبة: ٧١.

^{٢٧٢} سورة الحجرات: ١٠.

^{٢٧٣} سورة آل عمران: ١٠٣.

يَعْلَمُونَ»^(٢٧٤) حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو بن دينار قال: ﴿سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمَّعها الله رسوله ﷺ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة﴾ الحديث.

فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين - هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي ﷺ ﴿دعوها فإنها منتنة﴾ يقتضي وجوب ترك النداء بها. لأن قوله ﴿دعوها﴾ أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضي الوجوب على التحقيق، كما تقرر في الأصول. لأن الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢٧٥)، ويقول لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٢٧٦) فدل على أن مخالفة الأمر معصية. وقال تعالى عن نبيه موسى

^{٢٧٤} سورة المنافقون: ٨.

^{٢٧٥} سورة النور: ٦٣.

^{٢٧٦} سورة الأعراف: ١٢.

في خطابه لأخيه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(٢٧٧) فأطلق اسم المعصية على مخالفة الأمر: وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٢٧٨) فدلّت الآية على أن أمر الرسول ﷺ مانع من الاختيار، موجب للامتثال. ولا سيما أن النبي ﷺ أكد هذا الأمر بالترك بقوله: ﴿فإنها منتنة﴾، وحسبك بالتّن موجباً للتّباعد لدلالته على الخبث البالغ. فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية مخالف لما أمر به النبي ﷺ، وأن فاعله يتعاطى المتن، ولا شك أن المتن خبيث، والله تعالى يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾^(٢٧٩) الآية، ويقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(٢٨٠)، وحديث جابر الذي قدمناه عن البخاري أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، عن سفيان بن عيينة قال: ﴿سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنّا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين؟ فقال رسول الله ﷺ عليه

^{٢٧٧} سورة طه: ٩٣.

^{٢٧٨} سورة الأحزاب: ٣٦.

^{٢٧٩} سورة النور: ٢٦.

^{٢٨٠} سورة الأعراف: ١٥٧.

وسلم: ما بال دعوى الجاهلية! قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة ﴿الحديث. وقد عرفت وجه دلالة هذا الحديث على التحريم، مع أن في بعض رواياته الثابتة في الصحيح التصريح بأن دعوى الرجل: «يا لبني فلان» من دعوى الجاهلية، وإذ صح بذلك أنها من دعوى الجاهلية فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية﴾ وفي رواية في الصحيح: ﴿ليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية﴾، وذلك صريح في أن من دعا تلك الدعوى ليس منا، وهو دليل واضح على التحريم الشديد. ومما يدل لذلك قوله ﷺ: ﴿من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا﴾ هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد من طرق متعددة عن عتي بن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وذكره صاحب الجامع الصغير بلفظ: ﴿إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا﴾، وأشار لأنه أخرجه أحمد في المسند، والنسائي وابن حبان، والطبراني في الكبير، والضياء المقدسي عن أبي

رضي الله عنه، وجعل عليه علامة الصحة. وذكره أيضاً صاحب الجامع الصغير بلفظ ﴿إذا رأيت الرجل يتعزى...﴾ إلخ. وقال شارحه المناوي: ورواه عنه أيضاً الطبراني، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وقال شارحه العزيزي: هو حديث صحيح. وقال العجلوني، في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»: قال النجم: رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ومراده بالنجم: الشيخ محمد نجم الدين الغزي في كتابه المسمى «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن» فانظر كيف سمى النبي ﷺ ذلك النداء ﴿عزاء الجاهلية﴾، وأمر أن يقال للداعي به ﴿اعضض على هن أبيك﴾؛ أي فرجه، وأن يصرح له بذلك ولا يعبر عنه بالكناية. فهذا يدل على شدة قبح هذا النداء، وشدة بغض النبي ﷺ له.

واعلم أن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة. وقد بين الله تعالى قوميتهم في آيات كثيرة، كقوله:

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٢٨١) الآية، وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٢٨٢) الآية، وأمثال ذلك من الآيات.

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء - كما ذكرنا آنفاً - في منع النداء برابطة غير الإسلام، كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية. فإن النداء بها حيثئذ معناه الحقيقي: أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضاً باتاً، على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضاً مثلاً. فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفاً من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة، فهي كما قال الراجز:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا وبالشنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

^{٢٨١} سورة المائدة: ١٠٤.

^{٢٨٢} سورة البقرة: ١٧٠.

وقد بين الله جلّ وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوباً وقبائل هي التعارف فيما بينهم. وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها. قال جلّ وعلا: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢٨٣) فاللام في قوله ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ لام التعليل، والأصل لتتعارفوا، وقد حذفت إحدى التاءين. فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ونحن حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة؛ كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب. وقد بين الله جلّ وعلا أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه ﷺ من من الله عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾^(٢٨٤) أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه ﷺ:

^{٢٨٣} سورة الحجرات: ١٣.

^{٢٨٤} سورة الضحى: ٦.

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعباً عليه وعلى نبينا الصلاة
والسلام كما قال تعالى عن قومه: ﴿قَالُوا يُشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا
تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾^(٢٨٥).

وقد نفع الله بها نبيه صالحاً أيضاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. كما
أشار تعالى لذلك بقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٢٨٦) فقد دلت الآية على أنهم
يخافون من أولياء صالح، ولذلك لم يفكروا أن يفعلوا به سوءاً إلا ليلاً
خفية. وقد عزموا أنهم إن فعلوا به ذلك أنكروا وحلفوا لأوليائه أنهم ما
حضرُوا ما وقع بصالح خوفاً منهم. ولما كان لوط عليه وعلى نبينا
الصلاة والسلام لا عصبه له في قومه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال:

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢٨٧). فيلزم الناظر في هذه
المسألة أن يفرق بين الأمرين، ويعلم أن النداء بروابط القوميات لا يجوز
على كل حال، ولا سيما إذا كان القصد بذلك القضاء على رابطة

^{٢٨٥} سورة هود: ٩١.

^{٢٨٦} سورة النمل: ٤٩.

^{٢٨٧} سورة هود: ٨٠.

الإسلام، وإزالتها بالكلية بدعوى أنه لا يساير التطور الجديد، أو أنه جهود وتأخر عن مسيرة ركب الحضارة. نعوذ بالله من طمس البصيرة. وأن منع النداء بروابط القوميات لا ينافي أنه ربما انتفع المسلم بنصرة قريبه الكافر بسبب العواطف النسبية والأواصر العصبية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما وقع من أبي طالب للنبي ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ﴾، ولكن تلك القربات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع. لأنها تشمل المسلم والكافر، ومعلوم أن المسلم عدو الكافر، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٢٨٨).

والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله»، ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضاً، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٢٨٩﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٩٠﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢٨٩)، فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي رَبطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي الإيمان بالله جلّ وعلا. لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فوصفهم بالإيمان. وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فوصفهم أيضاً بالإيمان. فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة. ومما يوضح لك أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام، قوله تعالى في أبي هب عم النبي ﷺ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٢٩٠) ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النبي ﷺ والمسلمين، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيه: ﴿سَلَامٌ مِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، رواه الطبراني والحاكم

٢٨٩ غافر: ٧-٩.

٢٩٠ سورة المسد: ٣.

فى المستدرى؁ وجعل علىه صاىب الجامع الصغىر علامه الصىحه. وضعفه اللىاف الذهى. وقال الهىشى فىه؁ عىد الطبرانى كثر بن عبد الله المزنى ضعفه الجمهور؁ وبقىة رىاله ثقات. وقد أجاد من قال:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أباً لهب
وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن
كافر؁ أن إرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام؁ ولا يكون لولده لصلبه
الذى هو كافر؁ والميراث دليل القرابة. فذل ذلك على أن الأخوة الدينية
أقرب من البنة النسبية.

وبالجملة؁ فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التى تربط أفراد أهل
الأرض بعضهم ببعض؁ وتربط بين أهل الأرض والسماء؁ هى رابطة «لا
إله إلا الله»؁ فلا يجوز ألبنة النداء برابطة غيرها. ومن والى الكفار
بالروابط النسبية مابة لهم؁ ورغبة فىهم ىدخل فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٢٩١)؁ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً
فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^(٢٩٢)؁ والعلم عىد الله تعالى.

^{٢٩١} سورة المائدة: ٥١.

^{٢٩٢} سورة الأنفال: ٧٣.

وبالجملة، فالمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة:

الأولى: درء المفسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

والثانية: جلب المصالح، المعروف عند أهل الأصول بالحاجيات.

والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند

أهل الأصول بالتحسينيات والتميميات. وكل هذه المصالح الثلاث

هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعد لها.

فالضروريات التي هي درء المفسد إنما هي درؤها عن ستة أشياء:

الأول: الدين، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعد لها.

كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ

لِلَّهِ﴾^(٢٩٣)، وفي آية الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٢٩٤)، وقال تعالى:

﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾^(٢٩٥)، وقال رسول الله ﷺ: ﴿أمرت أن أقاتل

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ﷻ الحديث، وقال ﷺ: ﴿من بدل

دينه فاقتلوه﴾، إلى غير ذلك من الأدلة على المحافظة على الدين.

^{٢٩٣} سورة البقرة: ١٩٣.

^{٢٩٤} سورة الأنفال: ٣٩.

^{٢٩٥} سورة الفتح: ١٦.

والثاني: النفس، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعد لها. ولذلك أوجب القصاص درءاً للمفسدة عن النفس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾^(٢٩٦) الآية، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٢٩٧) الآية، وقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾^(٢٩٨) الآية.

الثالث: العقل، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعد لها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(٢٩٩) إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٣٠٠)، وقال ﷺ: ﴿كل مسكر حرام﴾، وقال: ﴿ما أسكر كثيره فقليله حرام﴾، وللمحافظة على العقل أوجب ﷺ حد الشارب درءاً للمفسدة عن العقل.

الرابع: النسب، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعد لها. ولذلك حرم الزنى وأوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء

^{٢٩٦} سورة البقرة: ١٧٩.

^{٢٩٧} سورة البقرة: ١٧٨.

^{٢٩٨} سورة الإسراء: ٣٣.

^{٢٩٩} سورة المائدة: ٩٠.

^{٣٠٠} سورة المائدة: ٩١.

عند المفارقة بطلاق أو موت؛ لئلا يختلط ماء الرجل بماء آخر في رحم امرأة، محافظة على الأنساب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٣٠١)، ونحو ذلك من الآيات، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٣٠٢) الآية. وقد قدمنا آية الرجم والأدلة الدالة على أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم. وقال تعالى في إيجاب العدة حفظاً للأنساب: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٣٠٣) الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٣٠٤)، وإن كانت عدة الوفاة فيها شبه تعبد؛ لوجوبها مع عدم الخلوة بين الزوجين.

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره منع نكاح الحامل حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٣٠٥).

٣٠١ سورة الإسراء: ٣٢.

٣٠٢ سورة النور: ٢.

٣٠٣ سورة البقرة: ٢٢٨.

٣٠٤ سورة البقرة: ٢٣٤.

٣٠٥ سورة الطلاق: ٤.

الخامس: العِرض، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعد لها، فهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، فأوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٣٠٦)، وقبح جلّ وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح. بقوله: ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٣٠٧). وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣٠٨)، وقال في إيجاب حد القاذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣٠٩) الآية.

السادس: المال، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعد لها، ولذلك منع أخذه بغير حق شرعي، وأوجب على السارق حد السرقة وهو قطع اليد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

^{٣٠٦} سورة الحجرات: ١٢.

^{٣٠٧} سورة الحجرات: ١٢.

^{٣٠٨} سورة الحجرات: ١١.

^{٣٠٩} سورة النور: ٤-٥.

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ^(٣١٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣١١)، وقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾^(٣١٢) الآية. وكل ذلك محافظة على المال ودرء للمفسدة عنه.

المصلحة الثانية: جلب المصالح، وقد جاء القرآن بجلب المصالح بأقوم الطرق وأعد لها. ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٣١٣)، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٣١٤)، وقال: ﴿بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾^(٣١٥).

ولأجل هذا جاء الشرع الكريم بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه المشروع. ليستجلب كل مصلحته من الآخر،

٣١٠ سورة النساء: ٢٩.

٣١١ سورة البقرة: ١٨٨.

٣١٢ سورة المائدة: ٣٨.

٣١٣ سورة الجمعة: ١٠.

٣١٤ سورة البقرة: ١٩٨.

٣١٥ سورة النساء: ٢٩.

كالبيع، والإجارات والأكرية والمساواة والمضاربة، وما جرى مجرى ذلك.

المصلحة الثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وقد جاء القرآن بذلك بأقوم الطرق وأعدلها، والحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ولذلك لما سُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»، لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق، والله تعالى يقول في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣١٦). فدل مجموع الآية وحديث عائشة على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق: أنه يكون على خلق عظيم، وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق، وسنذكر بعضاً من ذلك تنبيهاً به على غيره. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(٣١٧) الآية. فانظر ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

^{٣١٦} سورة القلم: ٤.

^{٣١٧} سورة البقرة: ٢٣٧.

أَنْ تَعْتَدُوا»^(٣١٨) الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٱلْأَنۢفُسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾^(٣١٩). فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق، والأمر بأن تُعامل من عصى الله فيك بأن تُطيعه فيه. وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْئًا وَبِٱلۡوَالِدَيْنِ إِحۡسَانًا وَبِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَامَىٰ وَٱلۡمَسَاكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّٰحِبِ ٱلۡجُنُبِ وَأَبۡنِى ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيْمَٰنُكُمۡ﴾^(٣٢٠)، فانظر إلى هذا من مكارم الأخلاق، والأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنۡكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣٢١)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَبۡنَىٰ ٓأَدَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾^(٣٢٢) الآية، وقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوا۟ ٱلۡفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَّنَ﴾^(٣٢٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغۡوِ مَرُّوا۟ كِرَٰمًا﴾^(٣٢٤)، وقال تعالى:

٣١٨ سورة المائدة: ٢.

٣١٩ سورة المائدة: ٨.

٣٢٠ سورة النساء: ٣٦.

٣٢١ سورة النحل: ٩٠.

٣٢٢ سورة الأعراف: ٣١.

٣٢٣ سورة الأنعام: ١٥١.

٣٢٤ سورة الفرقان: ٧٢.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(٣٢٥)، إلى غير ذلك من الآيات الدالة

على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات.

ومن هدى القرآن للتي هي أقوم^k هديه إلى حل المشكلات العالمية بأقوم
الطرق وأعدلها. ونحن دائماً في المناسبات نبين هدى القرآن العظيم إلى
حل ثلاث مشكلات، هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن
ينتمي إلى الإسلام، تنبيهاً بها على غيرها:

المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدة عن
مقاومة الكفار. وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم
الطرق وأعدلها، فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو
بصدق التوجه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه. لأن الله قوي
عزيز، قاهر لكل شيء. فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه
الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا. فمن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار
لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة
الأحزاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
 الظُّنُونًا ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾^(٣٢٦)، كان
 علاج ذلك هو ما ذكرنا. فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره
 في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة
 واقتصاداً. فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج، الذي قابلوا به هذا الأمر
 العظيم، وحلوا به هذه المشكلة العظمى، هو ما بينه جلّ وعلا بقوله:
 وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
 وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا^(٣٢٧)، فهذا الإيمان
 الكامل، وهذا التسليم العظيم لله جلّ وعلا، ثقةً به، وتوكلاً عليه، هو
 سبب حل هذه المشكلة العظمى. وقد صرح الله تعالى بنتيجة هذا العلاج
 بقوله تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا
 تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا

^{٣٢٦} سورة الأحزاب: ١٠-١١.

^{٣٢٧} سورة الأحزاب: ٢٢.

لَمْ تَطْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا^(٣٢٨)، وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونهم، ولا يحسبون أنهم ينصرون به وهو الملائكة والريح. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾^(٣٢٩)، ولما علم جلّ وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوه بإخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٣٣٠): أي من الإيمان والإخلاص، كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جلّ وعلا في قوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٣٣١)، فصرح جلّ وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدرُوا عليها، وأن الله جلّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم. فدلّت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي

٣٢٨ سورة الأحزاب: ٢٥-٢٧.

٣٢٩ سورة الأحزاب: ٩.

٣٣٠ سورة الفتح: ١٨.

٣٣١ سورة الفتح: ٢١.

وغلَبته له ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣٣٢)، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق، كما تقرر في الأصول. ووجهه ظاهر، لأن الفعل الصناعي - أعني الذي يسمى في الاصطلاح فعل الأمر أو الفعل الماضي أو الفعل المضارع - ينحل عند النحويين، وبعض البلاغيين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن
وعند جماعة من البلاغيين ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، وهذا هو
الظاهر، كما حرره بعض البلاغيين، في بحث الاستعارة التبعية.
فالمصدر إذاً كامن في مفهوم الفعل إجماعاً، فيتسلط النفي الداخل على
الفعل على المصدر الكامن في مفهومه، وهو في المعنى نكرة، إذ ليس له
سبب يجعله معرفة، فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي، وهي من
صيغ العموم. فقولُه: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في معنى لا قدرة لكم عليها،

وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة، لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله. وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جلّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣٣٣).

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء، مع أن المسلمين على الحق. والكفار على الباطل. وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ، فأفتى الله جلّ وعلا فيها، وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جلّ وعلا، وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد، فقتل عم رسول الله ﷺ وابن عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار، وجرح ﷺ، وشقت شفته، وكسرت ربايعيته، وشج ﷺ، استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون، ونحن على الحق وهم على الباطل؟! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ

مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ^(٣٣٤). وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ^(٣٣٥)﴾، ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح، لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ، ومن عرف أصل الداء عرف الدواء، كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية، لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ^(٣٣٦)﴾. فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمّر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها

^{٣٣٤} سورة آل عمران: ١٦٥.

^{٣٣٥} سورة آل عمران: ١٥٢.

^{٣٣٦} سورة الأنفال: ٤٦.

مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك. وقد بين تعالى أن سبب هذا الداء الذي عَمَّت به البلوى إنما هو ضعف العقل، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾^(٣٣٧) ولا شك أن داء ضعف العقل، الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق وتمييز الحق من الباطل والنافع من الضار والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي، لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً، ويضيء الطريق للمتمسك به، فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً والضرار ضاراً. قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتاً فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾^(٣٣٨)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٣٣٩)، ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق، لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن

^{٣٣٧} سورة الحشر: ١٤.

^{٣٣٨} سورة الأنعام: ١٢٢.

^{٣٣٩} البقرة: ٢٥٧.

يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٣٤٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي
الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ
﴿٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾^(٣٤١)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ
الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾^(٣٤٢)
الآية، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان
حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونوراً بدلاً من الظلمات التي كان
فيها، وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفاً عظيماً، كما قال تعالى:
﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣٤٣)، ولما
كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة، من هدي القرآن للتي
هي أقوم، يقتضي تتبع جميع القرآن وجميع السنة، لأن العمل بالسنة من

^{٣٤٠} سورة الملك: ٢٢.

^{٣٤١} سورة فاطر: ١٩-٢٢.

^{٣٤٢} سورة هود: ٢٤.

^{٣٤٣} سورة النور: ٣٥.

هدي القرآن للتي هي أقوم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣٤٤)، وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيهاً بها على غيرها والعلم عند الله تعالى» انتهى كلام العلامة الشنقيطي.

وقال ابن عجيبة، في «البحر المديد»: «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾؛ للطريق التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق وأعد لها، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهو: الخلود في النعيم المقيم، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. ﴿و﴾ يخبر ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعدنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أو: ويُبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم. الإشارة: لا شك في أن القرآن يهدي إلى طريق الحق؛ إما إلى طريق تُوصل إلى نعم جنانه، وإما إلى طريق تُوصل إلى شهوده ودوام رضوانه، فالأولى طريق الشرائع والأحكام، والثانية طريق الحقائق والإلهام، لكن لا يدرك

هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم، ولذلك أمر شيوخ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد، حتى يُشرق قلبه بأنوار المعارف، ويرجع من الفناء إلى البقاء، ثم بعد ذلك يُمر بالتلاوة، ليدوق حلاوة القرآن، ويتمتع بأنواره وأسراره، وقد أنكر بعض من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر - أعني ترك التلاوة في بدايتهم - محتجاً بهذه الآية، ولا دليل فيها عليهم، لأن كون القرآن يهدي للتي هي أقوم يعني: التمسك والتدبر في معانيه، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب، كما هو مجرب، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له في علوم القوم، وربما يُذكر وجود التربية من أصلها، ويسد الباب في وجوه الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق ثم تأخر الفتح عنه فلا يقنط.

وقال مكى بن أبى طالب القيسي، في «الهداية إلى بلوغ النهاية»: «المعنى: أن هذا القرآن يا محمد يرشد من اهتدى به للحال التي هي أقوم الحالات أي: أصوبها. وذلك دين الله - سبحانه - المستقيم وتوحيده - جلت عظمته - والإيمان بكتبه ورسله، وهو مع هدايته يبشر المؤمنين العاملين

الأعمال الصالحة أن لهم أجراً كبيراً وهو الجنة. وكل شيء في القرآن أجر كريم وأجر كبير ورزق كريم فهو الجنة. وقيل: المعنى: ويبشر [الله] المؤمنين بذلك. قال مقاتل وغيره: التي هي أقوم شهادة «أن لا إله إلا الله». وقيل معناه يهدي للخصال التي هي أصوب، مما أمر الله - عز وجل - ودعا إليه ووعد عليه العطاء الجزيل والثواب العظيم، وعلى هذا أكثر المفسرين. و«لا إله إلا الله» أصل الخصال الحسنة وأعظم ما دعا الله إليه عباده وندبهم إلى اعتقاده، فهي العروة الوثقى والكلمة المنجية من العذاب».

وقال ابن عاشور: «﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»^(٣٤٥) تفریع على قوله: «﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾»^(٣٤٦)، أي هلا تدبروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبع أحوال المؤمنين، أو تفریع على قوله «﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾»، والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منفعة بمعاني الخير والصالح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب.

^{٣٤٥} سورة محمد ﷺ: ٢٤.

^{٣٤٦} سورة محمد ﷺ: ٢٣.

والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه. وحرف «أَمْ» للإضراب الانتقالي، والمعنى: بل على قلوبهم أقفال وهذا الذي سلكه جمهور المفسرين، وهو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ﴿٣٤٧﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴿٣٤٧﴾ في سورة الزخرف، خلافاً لما يوهمه أو توهمه ابن هشام في مغني اللبيب. والتدبر: التفهم في دُبر الأمر، أي ما يخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه. والأقفال: جمع قُفل، وهو استعارة مكنية، إذ شبهت القلوب، أي العقول، في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخيل، كالأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتنكير «قُلُوب» للتنويع، أو التبويض، أي على نوع من القلوب أقفال. والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال، وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع، لأن إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا

النوع من القلوب ذوات الأقفال. فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاد من الإضراب الانتقالي في حكاية أحوالهم. ويدنو من هذا قول لبيد:

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

يريد نفسه، لأنه وقع بعد قوله: تَرَكَ أَمَكْنَةَ (البيت)، أي أنا تَرَكَ أَمَكْنَةَ. وإضافة «أقفال» إلى ضمير «قلوب» نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها، فدلّ على أنها قاسية. وقال مكي القيسي: «أي: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون كتاب الله وما فيه من الحجج، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون من النفاق بل على قلوبهم أقفال أقفلها الله عليهم، فهم لا يعقلون ما يتلى عليهم. قال خالد بن معدان: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله عز وجل من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله له: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. وروى هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ تلا يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

أَقْفَالُهَا»، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله يفتحها ويفرجها، فما زال الشاب في نفس عُمَرَ حتى وُلِّيَّ، فاستعان به». وقال الطبراني: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ فتعرفوا ما يُوعَدُونَ لِلْمُتَمَسِّكِ بالقرآن، ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ يعني الطَّبَعُ على القلب، وهذا استعارةٌ لإغلاقِ القلب عن معرفة الإسلام والقرآن، وكأنَّ على قلوبهم أقفالاً تَمْنَعُهُمْ مِنَ الاستدلالِ.

«الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ﴾ للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن؟ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ «أم» فيه منقطة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^(٣٤٨)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣٤٩)، وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣٥٠)، وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾^(٣٥١) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾^(٣٥٢) ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكى النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٣٥٣). وهذه الآيات المذكورة تدل

^{٣٤٨} سورة النساء: ٨٢.

^{٣٤٩} سورة المؤمنون: ٦٨.

^{٣٥٠} سورة ص: ٢٩.

^{٣٥١} سورة الكهف: ٥٧.

^{٣٥٢} سورة السجدة: ٢٢.

^{٣٥٣} سورة الفرقان: ٣٠.

على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين. وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: ﴿خيركم من تعلم القرآن وعلمه﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(٣٥٤)، فأعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له، من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى. ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة. وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل. وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة. فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ﷺ ولأصحاب رسوله جميعاً، وللأئمة رحمهم الله، كما سترى إيضاحه إن شاء للمسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة.

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم وتفهمه والعمل به، لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ

^{٣٥٤} سورة آل عمران: ٧٩.

درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم، التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما. أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً. وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح، فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً. ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس. ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً! فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى. ومعلوم أن من

المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخل الكفار والمنافقين، في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به، وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا في ما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة، من الكتاب والسنة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد كي تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب مراقي السعود تبعاً للقراقي من قوله:

من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر

لا يصح على إطلاقه بحال، لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل. ومن المعلوم، أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة، إلا بدليل يجب الرجوع إليه. ومن المعلوم أيضاً، أن عمومات الآيات والأحاديث، الدالة على حث جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أكثر من أن تحصى، كقوله ﷺ: ﴿تركت فيكم ما إن

تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وسنتي ﴿١﴾، وقوله ﷺ: ﴿عليكم بسنتي﴾ الحديث. ونحو ذلك مما لا يحصى. فتخصيص جميع تلك النصوص بخصوص المجتهدين، وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريماً باتاً يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين. ومعلوم أن المقلد الصرف، لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء، كما سترى إيضاحه، إن شاء الله. وقال صاحب «مراقي السعود في نشر البنود»، في شرحه لبيته المذكور آنفاً ما نصه: يعني أن غير المجتهد يحظل له؛ أي يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها، لاحتمال عوارضه من نسخ وتقييد وتخصيص، وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. وبه تعلم أنه لا مستند له، ولا للقرافي الذي تبعه، في منع جميع المسلمين، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا مطلق احتمال

العوارض، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد، ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود النسخ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المقيّد، والنص يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به، عموماً كان أو إطلاقاً أو غيرهما، حتى يرد دليل صارف عنه الى المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد، ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج، وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها. وقد أوضح ابن القاسم العبادي، في الآيات البيّنات غلطهم في ذلك، في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ، قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافاً لابن سريج اهـ. وعلى كل حال فظواهر النصوص، من عموم

وإطلاق ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا للدليل يجب الرجوع إليه، من مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله. فادعاء كثير من المتأخرين، أنه يجب ترك العمل به حتى يبحث عن المخصص والمقيد، مثلاً، خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي ﷺ ليعمل بها، تعلم ذلك النص العام أو المطلق، وتعلم معه، مخصصه ومقيده، إن كان مخصصاً أو مقيداً، وتعلم ناسخه، إن كان منسوخاً، وتعلم ذلك سهل جداً، بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتمد بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثاً فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه الله ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾^(٣٥٥)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^(٣٥٦) على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي

^{٣٥٥} سورة البقرة: ٢٨٢.

^{٣٥٦} سورة الأنفال: ٢٩.

يفرق به بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٣٥٧) الآية. وهذه التقوى، التي دلت الآيات على أن الله يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم، لا تزيد على عمله بما علم من أمر الله، وعليه فهي عمل ببعض ما علم، زاده الله به علم ما لم يكن يعلم. فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن، حتى يحصلوا شرطاً مفقوداً، في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله ﷺ، هو كما ترى.

تنبيه مهم: يجب على كل مسلم يخاف العرض على ربه، يوم القيامة، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطاعة الكبرى التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة؛ وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، استغناء تاماً، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدونة. وبناء هذا على مقدمتين:

إحداهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين.
والثانية: أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً، لا وجود لأحد منهم في الدنيا، وأنه بناء على هاتين المقدمتين، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منعاً باتاً على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة. وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان.

فتأمل، يا أخي، رحمك الله: كيف يسوغ لمسلم، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما، استغناء عنهما بكلام رجال غير معصومين ولا خلاف في أنهم يخطئون. فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة، لا حاجة إلى تعلمهما، وأنها يغني عنهما غيرهما، فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور. وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يُقدَّر عليه، فهو أيضاً زعم باطل، لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة، والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٣٥٨)،

ويقول تعالى في سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣٥٩)، ويقول في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(٣٦٠). فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(٣٦١)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣٦٢). فلا شك أن الذي يتباعد، عن هداه يحاول التباعده عن هدى الله ورحمته. ولا شك أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه ليستضاء به، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والرشد من الغي. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(٣٦٣)، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

^{٣٥٩} سورة الدخان: ٥٨.

^{٣٦٠} سورة مريم: ٩٧.

^{٣٦١} سورة العنكبوت: ٤٩.

^{٣٦٢} سورة الأعراف: ٥٢.

^{٣٦٣} سورة النساء: ١٧٤.

مُسْتَقِيمٍ^(٣٦٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا أَلْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٣٦٥)، وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا﴾^(٣٦٦)، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣٦٧)، فإذا علمت، أيها المسلم، أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور؟! فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعمها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفاش

﴿يَكَادُ الْبَرُّ يُخْطَفُ أَبْصَارُهُمْ﴾^(٣٦٨)، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٣٦٩). ولا شك في

٣٦٤ سورة المائدة: ١٥، ١٦.

٣٦٥ سورة الشورى: ٥٢.

٣٦٦ سورة التّغابن: ٨.

٣٦٧ سورة الأعراف: ١٥٧.

٣٦٨ سورة البقرة: ٢٢.

٣٦٩ سورة الرعد: ١٩.

أن من عميت بصيرته عن النور تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً. ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في هذا الزمان أسير منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك من ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وأحوال الرجال من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم، فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين. وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف. والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك، تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. واعلم أيها المسلم المنصف، أن من أشنع الباطل

وأعظم القول بغير الحق، على الله وكتابه، وعلى النبي ﷺ وسنته المطهرة، ما قاله الشيخ أحمد الصاوي، في حاشيته على الجلالين، في سورة الكهف وآل عمران، واغتر بقوله في ذلك خَلَقَ لا يحصى من المتسمين باسم طلبة العلم، لكونهم لا يميزون بين حق وباطل. فقد قال الصاوي في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا﴾^(٣٧٠) الآية، بعد أن ذكر الأقوال في انفصال الاستثناء عن المستثنى منه بزمان، ما نصه: وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله، فإن شرط حل الأيمان بالمشيئة أن تتصل، وأن يقصد بها حل اليمين، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس، ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة، ضال مضل، وربما أداه ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. اهـ. منه بلفظه. فانظر، يا أخي، رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله، وما أجراً قائله على الله وعلى كتابه وعلى النبي ﷺ وسنته وأصحابه ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(٣٧١).

٣٧٠ سورة الكهف: ٢٣.

٣٧١ سورة النور: ١٦.

أما قوله بأنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة، ولو كانت أقوالهم مخالفة للكتاب والسنة وأقوال الصحابة، فهو قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وإجماع الأئمة الأربعة أنفسهم، كما سنرى إيضاحه إن شاء الله بما لا مزيد عليه في المسائل الآتية بعد هذه المسألة. فالذي ينصره هو الضال المضل. وأما قوله: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة، من أصول الكفر، فهذا أيضاً من أشنع الباطل وأعظمه، وقائله من أعظم الناس انتهاكاً لحرمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾! والتحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وعامة علماء المسلمين، أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح. والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما يصدر عن من لا علم له بالكتاب والسنة أصلاً، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفراً، والواقع في الأمر نفسه أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من

بعد الشمس من اللمس. ومما يوضح لك ذلك أن آية الكهف هذه، التي ظن الصاوي أن ظاهرها حل الأيمان بالتعليق بالمشيئة المتأخر وزمنها عن اليمين، وأن ذلك مخالف للمذاهب الأربعة، وبنى على ذلك أن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، كله باطل لا أساس له، فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً، وظاهر الآية بعيد مما ظن، بل الظن الذي ظنه والزم الذي زعمه لا تشير الآية إليه أصلاً، ولا تدل عليه لا بدلالة المطابقة، ولا التضمن، ولا الالتزام، فضلاً على أن تكون ظاهرة فيه. وسبب نزولها يزيد ذلك إيضاحاً، لأن سبب نزول الآية أن الكفار سألوا النبي ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال لهم: «سأخبركم غداً»، ولم يقل: «إن شاء الله»، فعاتبه ربه بعدم تفويض الأمر إليه، وعدم تعليقه بمشيئته جل وعلا، فتأخر عنه الوحي، ثم علمه الله في الآية الأدب معه في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً﴾ إلا أن يشاء الله^(٣٧٢)، ثم قال لنبیه ﷺ: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا

نَسِيتَ^(٣٧٣)، يعني إن قلت سأفعل كذا غداً، ثم نسيت أن تقول: «إن شاء الله»، ثم تذكرت بعد ذلك، فاذكر ربك، أي قل: «إن شاء الله»، أي لتتدارك بذلك الأدب مع الله، الذي فاتك عند وقته بسبب النسيان، وتخرج من عهدة النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. والتعليق بهذه المشيئة المتأخرة لأجل المعنى المذكور، الذي هو ظاهر الآية الصحيح، لا يخالف مذهباً من المذاهب الأربعة ولا غيرهم، وهو التحقيق في مراد ابن عباس بما ينقل عنه من جواز تأخير الاستثناء، كما أوضحه كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله. فيا أتباع الصاوي المقلدين له تقليداً أعمى على جهالة عمياء، أين دل ظاهر آية الكهف هذه على اليمين بالله، أو بالطلاق أو بالعتق أو بغير ذلك من الأيمان؟ وهل النبي ﷺ حلف لما قال للكفار: سأخبركم غداً؟ وهل قال الله: ولا تقولن لشيءٍ إني حالف سأفعل ذلك غداً؟ ومن أين جئتم باليمين، حتى قلتم إن ظاهر القرآن، هو حل الأيمان بالمشيئة المتأخرة عنها، وبنيتم على ذلك أن ظاهر الآية مخالف لمذاهب الأئمة الأربعة، وأن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول

الكفر؟ ومما يزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما قاله الصاوي أيضاً في تفسير سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(٣٧٤)، فإنه قال على كلام جلال الدين ما نصه: زيغ أي ميل عن الحق للباطل، قوله: بوقوعهم في الشبهات واللبس، أي كنصارى نجران، ومن هذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة اهـ. فانظر، رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله! وما أجراً قائله على انتهاك حرمت الله وكتابه ونبيه وسنته ﷺ! وما أدله على أن صاحبه لا يدري ما يتكلم به! فإنه جعل ما قاله نصارى نجران هو ظاهر كتاب الله، ولذا جعل مثلهم من هذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن. وذكر أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، مع أنه لا يدري وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر، مع أنه مسلم بأن ادعاءهم على ظاهر القرآن أنه كفرهم ومن هذا حذوهم ادعاء صحيح، إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر! وقد قال قبل هذا: قيل سبب نزولها أن وفد نجران

^{٣٧٤} سورة آل عمران: ٧.

قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تقول: إن عيسى روح الله وكلمته؟ فقال نعم، فقالوا حسبنا، أي كفانا ذلك في كونه ابن الله. فنزلت الآية. فاتضح أن الصاوي يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٣٧٥) هو أن عيسى ابن الله ادعاء صحيح، وبني على ذلك أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه، فالآية لا يفهم من ظاهرها ألّبتة، بوجه من الوجوه، ولا بدلالة من الدلالات، أن عيسى ابن الله، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت. فقول الصاوي: كنصارى نجران ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن صريح في أنه يعتقد أن ما ادعاه وفد نجران من كون عيسى ابن الله هو ظاهر القرآن، اعتقاد باطل باطل باطل، حاشا القرآن العظيم من أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره، بل هو لا يدل عليه ألّبتة، فضلاً عن أن يكون ظاهره، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾^(٣٧٦)، أي كل ذلك من عيسى ومن

^{٣٧٥} سورة النساء: ١٧١.

^{٣٧٦} سورة الجاثية: ١٣.

تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه جل وعلا. فلفظة «من» في الآيتين لا ابتداء الغاية، وذلك هو ظاهر القرآن، وهو الحق، خلافاً لما زعمه الصاوي وحكاه عن نصارى نجران. وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يعلمون ما هي الظواهر، وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص. والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال، فضلاً عن أن يكون ظاهره، فبنوا باطلاً على باطل، ولا شك أن الباطل لا يبنى عليه إلا الباطل. ولو تصوروا معاني ظواهر الكتاب والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك، من أن يقولوا ما قالوا، فتصور الصاوي أن ظاهر آية الكهف المتقدمة هو حل الأيمان، بالتعليق بالمشيئة المتأخر زمنها عن اليمين، وبناءه على ذلك مخالفة ظاهر الآية لمذاهب الأئمة الأربع، وأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، مع أن الآية لا تشير أصلاً إلى ما اعتقد أنه ظاهرها. وكذلك اعتقاده أن ظاهر آية آل عمران المذكورة هو ما زعمه نصارى نجران، من أن عيسى ابن الله، فإنه كله باطل، وليس شيء مما زعم ظاهر القرآن مطلقاً، كما لا يخفى على عاقل. وقول الصاوي في

كلامه المذكور في سورة آل عمران: إن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. قول باطل لا يشك في بطلانه من عنده أدنى معرفة. ومن هم العلماء الذين قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟ سموهم لنا، وبينوا لنا من هم؟ والحق الذي لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم ولا متعلم، لأن ظواهر الكتاب والسنة هي نور الله الذي أنزله على رسوله ﷺ ليستضاء به في أرضه وتقام به حدوده، وتنفذ به أوامره، وينصف به بين عباده في أرضه.

والنصوص القطعية التي لا احتمال فيها قليلة جداً، لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً، كقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (سورة البقرة: ١٩٦)، والغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر. وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول. فتنفير الناس وإبعادهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بدعوى أن الأخذ بظواهرهما من أصول الكفر، هو من أشنع الباطل وأعظمه كما ترى.

وأصول الكفر يجب على كل مسلم أن يحذر منها كل الحذر، ويتباعد منها كل التباعد، ويتجنب أسبابها كل الاجتناب، فيلزم على هذا القول المنكر الشنيع وجوب التباعد من الأخذ بظواهر الوحي! وهذا كما ترى، وبما ذكرنا، يتبين أن من أعظم أسباب الضلال ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة ليست بلائقة. والواقع في الأمر نفسه بعدها وبراءتها من ذلك. وسبب تلك الدعوى الشنيعة على ظواهر كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، هو عدم معرفة مدعيها، ولأجل هذه البلية العظمى والطامة الكبرى، زعم كثير من النظار، الذين عندهم فهم، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها غير لائقة بالله، لأن ظواهرها المتبادرة منها هو تشبيه صفات الله بصفات خلقه، وعقد ذلك المقري في إضاءته، في قوله:

والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق

فاصرفه عن ظاهره إجماعاً واقطع عن الممتنع الأطماعاً وهذه الدعوى الباطلة من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ. والواقع في الأمر نفسه أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها المتبادرة منها، لكل مسلم راجع عقله، هي مخالفة صفات الله لصفات

خلقه. ولا بد أن نتساءل هنا؛ فنقول: أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق في الذات والصفات والأفعال؟ والجواب الذي لا جواب غيره: بلى. وهل تشابهت صفات الله مع صفات خلقه حتى يقال إن اللفظ الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق؟ والجواب الذي لا جواب غيره: لا.

فبأي وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله في كتابه، مثلاً دالاً على صفة من صفات الله أثنى بها تعالى على نفسه، يكون ظاهره المتبادر منه، مشابهته لصفة الخلق؟ ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾. فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف، وصفاتها متخالفة كل التخالف. فبأي وجه يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة الخالق؟ أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة المخلوق، مع كمال المنافاة بين الخالق والمخلوق؟ فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لاثقاً بالخالق منزهاً عن مشابهة صفات المخلوق. وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة الخالق. فالظاهر المتبادر من لفظ «اليد» بالنسبة للمخلوق، هو كونها

جارحة؛ هي عظم ولحم ودم، وهذا هو الذي يتبادر إلى الذهن في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٣٧٧)، والظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق في نحو قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾^(٣٧٨) أنها صفة كمال وجلال، لائقة بالله جل وعلا، ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله. وقد بين جل وعلا عظم هذه الصفة وما هي عليه من الكمال والجلال، وبين أنها من صفات التأثير كالقدرة، قال تعالى في تعظيم شأنها: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣٧٩)، وبين أنها صفة تأثير كالقدرة، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فتصرّحه تعالى بأنه خلق نبيه آدم بهذه الصفة العظيمة، التي هي صفات كماله وجلاله، يدل على أنها من صفات التأثير، كما ترى، ولا يصح هنا تأويل اليد بالقدرة ألّبتة، لإجماع أهل الحق والباطل، كلهم على أنه لا يجوز تشية القدرة. ولا يخطر في ذهن المسلم المراجع عقله، دخول الجارحة التي هي عظم ولحم

^{٣٧٧} سورة المائدة: ٣٨.

^{٣٧٨} سورة ص: ٧٥.

^{٣٧٩} سورة الزمر: ٦٧.

ودم في معنى هذا اللفظ، الدال على هذه الصفة العظيمة من صفات خالق السماوات والأرض. فاعلم أيها المدعي أن ظاهر لفظ «اليد» في الآية المذكورة وأمثالها، لا يليق بالله، لأن ظاهرها التشبيه بجارحة الإنسان، وأنها يجب صرفها، عن هذا الظاهر الخبيث، ولم تكتف بهذا حتى ادعت الإجماع على صرفها عن ظاهرها، إن قولك هذا كله افتراء عظيم على الله تعالى وعلى كتابه العظيم، وإنك بسببه كنت أعظم المشبهين والمجسمين، وقد جرك شؤم هذا التشبيه، إلى ورطة التعطيل، فنفيت الوصف الذي أثبتته الله في كتابه لنفسه بدعوى أنه لا يليق به، وأولته بمعنى آخر من تلقاء نفسك، بلا مستند من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا قول أحد من السلف. وماذا عليك لو صدقت الله وآمنت بما مدح به نفسه على الوجه اللائق بكماله وجلاله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل؟ وبأي موجب سوغت لذهنك أن يخطر فيه صفة المخلوق عند ذكر صفة الخالق؟ هل تلتبس صفة الخالق بصفة المخلوق عند أحد حتى يفهم صفة المخلوق من اللفظ الدال على صفة الخالق؟

فاخش الله يا إنسان، واحذر من التقول على الله بلا علم، وأمن بها جاء في كتاب الله، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه. واعلم أن الله الذي أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه الفرق بين الوصف اللائق به والوصف غير اللائق به، حتى يأتي إنسان فيتحكم في ذلك فيقول: هذا الذي وصفت به نفسك غير لائق بك، وأنا أنفيه عنك بلا مستند منك ولا من رسولك ﷺ، وأتيك بدله بالوصف اللائق بك. فاليد مثلاً، التي وصفت بها نفسك لا تليق بك لدالتها على التشبيه بالجراحة، وأنا أنفيها عنك نفياً باتاً، وأبدلها لك بوصف لائق بك وهو «النعمة» أو «القدرة» مثلاً أو «الجود». ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾! ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٣٨٠). ومن الغريب أن بعض الجاحدين لصفات الله المؤولين لها بمعان لم ترد عن الله ولا عن رسوله يؤمنون فيها ببعض الكتاب دون بعض؛ فيقرون بأن الصفات السبع التي تشتق منها أوصاف ثابتة لله مع التنزيه، ونعني بها القدرة والإرادة والعلم والحياة

٣٨٠ سورة الطلاق: ١٠، ١١.

والسمع والبصر والكلام، لأنها يشتق منها: قادر حي عليم... إلخ. وكذلك في بعض الصفات الجامعة؛ كالعظمة والكبرياء والملك والجلال مثلاً، لأنها يشتق منها: العظيم المتكبر والجليل والملك، وهكذا ويحددون كل صفة ثبتت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لم يشتق منها غيرها كصفة اليد والوجه، ونحو ذلك! ولا شك أن هذا التفريق بين صفات الله، التي أثبتتها لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ لا وجه له ألبتة بوجه من الوجوه. ولم يرد عن الله ولا عن رسوله ﷺ الإذن في الإيذان ببعض صفاته ووجد بعضها، وتأويله لأنها لا يشتق منها. وهل يتصور عاقل أن يكون عدم الاشتقاق مسوغاً لجحد ما وصف الله به نفسه؟ ولا شك عند كل مسلم راجع عقله، أن عدم الاشتقاق لا يرد به كلام الله، في ما أثنى به على نفسه، ولا كلام رسوله ﷺ فيما وصف به ربه. والسبب الموجب للإيمان إيجاباً حتماً كلياً هو كونه من عند الله، وهذا السبب هو الذي علم الراسخون في العلم أنه الموجب للإيمان بكل ما جاء عن الله، سواء أستاثر الله بعلمه كالمتشابه، أم كان مما يعلمه الراسخون في العلم، كما قال الله عنهم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا^(٣٨١)، فلا شك أن قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ من عند ربنا. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣٨٢) من عند ربنا أيضاً، فيجب علينا الإيمان بالجميع، لأنه كله من عند ربنا. أما الذي يفرق بينه، وهو عالم بأنه كله من عند ربه، بأن هذا يشق منه، وهذا لا يشق منه، فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض. والمقصود أن كل ما جاء من عند الله يجب الإيمان به، سواء أكان من المتشابه، أم من غير المتشابه، وسواء أكان يشق منه أم لا. ومعلوم أن مالكا، رحمه الله، سئل كيف استوى، فقل الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب. وما يزعمه بعضهم من أن القدرة والإرادة، مثلاً، ونحوهما ليست كاليد، والوجه، بدعوى أن القدرة والإرادة مثلاً ظهرت آثارهما في العالم العلوي والسفلي، بخلاف غيرهما كصفة اليد ونحوها، فهو من أعظم الباطل. ومما يوضح ذلك أن الذي يقوله هو وأبوه وجده من آثار صفة اليد التي خلق الله بها نبيه آدم. ونحن نرجو أن يغفر الله للذين ماتوا على هذا الاعتقاد، لأنهم لا يقصدون تشبيه الله بخلقه، وإنما يحاولون

^{٣٨١} سورة آل عمران: ٧.

^{٣٨٢} سورة البقرة: ٢٨٤.

تنزيهه عن مشابهة خلقه، فقصدهم حسن، ولكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئة. وإنما نشأ لهم ذلك السوء بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة، التي مدح الله بها نفسه، يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق، فنفوا الصفة التي ظنوا أنها لا تليق قصداً منهم لتنزيه الله، وأولوها بمعنى آخر يقتضي التنزيه، في ظنهم، فهم كما قال الشافعي رحمه الله:

رام نفعاً فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقاً

ونحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم، وأن يكونوا داخلين في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣٨٣)، وخطوهم المذكور لا شك فيه، ولو وفقهم الله لتطهير قلوبهم من التشبيه أولاً، وجزموا بأن ظاهر صفة الخالق هو التنزيه عن مشابهة صفة المخلوق، لسلموا مما وقعوا فيه. ولا شك أن النبي ﷺ عالم كل العلم بأن الظاهر المتبادر، مما مدح الله به نفسه في آيات الصفات، هو التنزيه التام عن صفات الخلق، ولو كان يخطر في ذهنه ما لا يليق، لأنه تشبيه بصفات الخلق، لبادر كل المبادرة إلى بيان ذلك، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، ولا سيما

في العقائد، ولا سيما في ما ظاهره الكفر والتشبيه. فسكوت النبي ﷺ عن بيان هذا يدل على أن ما زعمه المؤولون لا أساس له كما ترى. فإن قيل: إن هذا القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين، والعرب لا تعرف في لغتها كيفية اليد مثلاً، إلا كيفية المعاني المعروفة عندها كالجارحة، وغيرها من معاني اليد المعروفة في اللغة، فبينوا لنا كيفية اليد ملائمة لما ذكرتم. فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن العرب لا تدرك كيفيات صفات الله من لغتها، لشدة منافاة صفة الله لصفات الخلق. والعرب لا تعرف عقولهم كيفيات إلا لصفات الخلق، فلا تعرف العرب كيفية للسمع والبصر، إلا هذه المشاهدة في حاسة الأذن والعين، أما سمع لا يقوم بأذن، وبصر لا يقوم بحدقة، فهذا لا يعرفون له كيفية ألبته. فلا فرق بين السمع والبصر، وبين اليد والاستواء، فالذي تعرف كيفيته العرب من لغتها من جميع ذلك، هو المشاهد في المخلوقات. وأما الذي اتصف الله به من ذلك، فلا تعرف له العرب كيفية، ولا حداً لمخالفة صفاته لصفات الخلق، إلا أنهم يعرفون من لغتهم أصل المعنى، كما قال الإمام مالك، رحمه الله: الاستواء

غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. كما يعرفون، من لغتهم، أن بين الخالق والمخلوق، والرازق والمرزوق، والمحىي والمحيى، والمميت والممات. فوارق عظيمة لا حد لها، تستلزم المخالفة، التامة، بين صفات الخالق والمخلوق.

الوجه الثاني: أن نقول لمن قال: بينوا لنا كيفية ليد ملائمة لما ذكرتم، من كونها صفة كمال، وجلال، منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق. هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد، فلا بد أن تقول: لا. فإن قال ذلك قلنا: معرفة كيفية الصفات تتوقف على معرفة كيفية الذات. فالذات والصفات من باب واحد، فكما أن ذاته، جل وعلا، تخالف جميع الذوات، فإن صفاته تخالف جميع الصفات.

ومعلوم أن الصفات، تختلف وتباين، باختلاف موصوفاتها؛ ألا ترى مثلاً أن لفظة «رأس» كلمة واحدة؟ إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان، وإلى الوادي فقلت رأس الوادي، وإلى المال فقلت رأس المال، وإلى الجبل فقلت رأس الجبل. فإن كلمة «الرأس» اختلفت معانيها، وتباينت تبايناً شديداً، بحسب اختلاف إضافتها، مع أنها في مخلوقات

حقيرة، فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله تعالى، وما أضيف منها إلى خلقه، فإنه يتباين كتابين الخالق والمخلوق، كما لا يخفى. فاتضح بما ذكر أن الشرط في قول المقرئ في إضاءته:

والنص إن أوهم غير اللائق

شرط مفقود قطعاً، لأن نصوص الوحي الواردة في صفات الله تعالى، لا تدل ظواهرها ألبتة، إلا على تنزيه الله، ومخالفته لخلقه في الذات والصفات والأفعال».

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٣٨٤).

قال الإمام البيضاوي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، وفيهم العرب العرباء وأرباب البيان وأهل التحقيق، وهو جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة، ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم، لكون الشرط ماضياً كقول زهير:

وَإِنْ أَنَا خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمٌ
 ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم
 يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا
 وسائط في إتيانه، ويجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ
 عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ
 حَمِيدٍ﴾ (٣٨٥).

قال الإمام الطبري: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا
 مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يأتيه الكذب من الكتب التي قبله، ولا يجيء بعده
 كتاب فيبطله، وقال الزجاج: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مُحْفُوظٌ مِنْ أَنْ يُنْقَصَ مِنْهُ فَيَأْتِيَهُ
 الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، أَوْ يُزَادَ فِيهِ فَيَأْتِيَهُ الْبَاطِلُ مِنْ خَلْفِهِ، فمعنى الباطل
 على هذا الزيادة والنقصان. وفي عَيْنِ الْمَعَانِي: (الْبَاطِلُ إِبْلِيسُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي مُنَزَّلٌ مِنْ عَالَمٍ بِوُجُوهِ
 الْحِكْمَةِ، مُسْتَحَقٌّ لِلْحَمْدِ عَلَى خَلْقِهِ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣٨٦)

قال الإمام محمد متولي الشعراوي: «قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ...﴾:

الحق من حق الشيء. أي: ثبت، فالحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ

عليه التغير أبداً، أما الباطل فهو مُتَغَيِّرٌ مُتَلَوِّنٌ لأنه زهوق، والباطل له

ألوان متعددة، والحق ليس له إلا لون واحد. لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً

للحق والباطل، قال سبحانه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ

حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(٣٨٧)، فإن رأيت في عصر من العصور خوراً يصيب أهل

الحق، وعُلُوّاً يحالف أهل الباطل، فلا تغتر به، فهو عُلُوُّ الزَّبَدِ يعلو

صفحة الماء، ولا ينتفع الناس به، وسرعان ما تُلقِي به الريح هنا وهناك،

لتجلو صفحة الماء الناصعة المفيدة، أما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً دون فائدة،

ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة

^{٣٨٦} سورة الإسراء: ١٠٥.

^{٣٨٧} سورة الرعد: ١٧.

ونحوها. وهكذا الباطل مُتَغَيِّرٌ مُتَقَلِّبٌ لا ينتفع به، والحق ثابت لا يتغير، لأنه مَظْهَرِيَّةٌ من مَظْهَرِيَّاتِ الحق الأعلى سبحانه، وهو سبحانه الحق الأعلى الذي لا تتناوله الأغيار. وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ نلاحظ هنا أن ضمير الغائب لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّح الضمير ويعود إليه، صحيح أن الضمير أعرفُ المعارف، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه، وهنا لم يسبق الضمير بشيء، كما سبق بمرجع في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٣٨٨)، فهنا يعود الضمير في ﴿بِمِثْلِهِ﴾ إلى القرآن الذي سبق ذكره. فنقول: إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتَعَيَّنًا لا يختلف فيه اثنان، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣٨٩)، فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى، وهذا أمر لا يُخْتَلَفُ عليه. كذلك في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن؛ لأنه شيء ثابت مُتَعَيَّنٌ لا يُخْتَلَفُ عليه. وجاء الفعل «أنزل» للتعدية، فكأن الحق سبحانه كان كلامه - وهو القرآن - محفوظاً في اللوح

^{٣٨٨} سورة الإسراء: ٨٨.

^{٣٨٩} سورة الإخلاص: ١.

المحفوظ، إلى أن يأتي زمان مباشرة القرآن لمهمته، فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣٩٠)، وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، ثم نُزِّلَهُ مُنْجِماً بِحَسَبِ الْأَحْدَاثِ، في ثلاث وعشرين سنة؛ مُدَّة الدَّعْوَةِ كُلِّهَا، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذي يعالج هذه الحالة. و﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: نحن، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذي حفظه في اللوح المحفوظ، وهو الذي أنزله، وأنزله على الأمين من الملائكة الذي اصطفاه لهذه المهمة: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٣٩١)، أي: جبريل، عليه السلام، الذي كَرَّمَهُ اللهُ وجعله روحاً، كما جعل القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(٣٩٢)، وقال عنه أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٣٩٣)، والكريم لا يكتفم شيئاً ممَّا أُوحى إليه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(٣٩٤) ثُمَّ أَمِينٍ، هذه صفات جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه، ثم أوصله لمن؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر ﷺ:

٣٩٠ سورة القدر: ١.

٣٩١ سورة الشعراء: ١٩٣.

٣٩٢ سورة الشورى: ٥٢.

٣٩٣ سورة التكوين: ١٩.

٣٩٤ سورة التكوين: ٢٠، ٢١.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٣٩٥)، إذاً: فالقرآن الذي
بين أيدينا هو الذي نزل من اللوح المحفوظ، وهو الحق الثابت الذي
لا شك فيه، والذي لم يتغير منه حرفٌ واحدٌ، ولن يجد فيه أحدٌ ثغرةً
للاتهام إلى أن تقوم الساعة. ثم يقول تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الأولى
كانت: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: الوسائل التي نزل بها كلمة ثابتة، وكلها
حقٌّ لا ريب فيه ولا شكَّ ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: مضمونه، وما جاء به
منهج، معجزة حقٌّ لأنه تحدّى الفُصحاء والبلغاء وأهل اللغة،
فأعجزهم في كل مراحل التحدي، والقرآن يحتوي على منهج حق.
وأول شيء في منهج القرآن أنّه تكلم عن العقائد التي هي الأصل
الأصيل لكل دين، فقبل أن أقول لك: قال الله، وأمر الله، لا بدّ أن تعرف
أولاً مَنْ هو الله، وَمَنْ الرسول الذي بلغ عن الله، فالعقائد هي ينبوع
السُّلوكات. إذاً: تعرّض القرآن للإلهيات، وأوضح أن الله تعالى إله
واحد له صفات الكمال المطلق، وتعرّض للملائكة وللنبوات
والمعجزات والمعاد واليوم الآخر، كُلُّ هذا في العقائد؛ لأن الإسلام

^{٣٩٥} سورة التكويد: ٢٢ - ٢٥.

حرصَ أولاً على تربية العقيدة، فكانت الدعوة في مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين، لِئُرَبِّيَ في المسلمين هذا الأصل الأصيل، وهو الاستسلام لله، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى.

والإنسان لا يُلقي زمام حركته إلا لِمَنْ يثق به، فلا بُدَّ إذن من معرفة الله تعالى، ثم الإيمان به، تعالى، ثم التصديق للمبلِّغ عن الله.

وفي القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير، ولن تُنسخ بشريعة أخرى؛ لأنها الشريعة الخاتمة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣٩٦)،

إذاً: نزل القرآن بما هو حَقٌّ من: إلهيات وملائكة ونبؤات ومعجزات وأحكام وشرائع، كلها حَقٌّ ثابت لا شكَّ فيه، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنْ اصطفاه من الملائكة، وهو جبريل، على مَنْ اصطفاه من الناس وهو محمد ﷺ، وفي طي ما نزل الحق الثابت الذي لا يتغير.

وصدق الحق سبحانه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣٩٧)، ونسوق هنا دليلاً عريضاً على أن كتاب الله جاء بالحق

^{٣٩٦} سورة المائدة: ٣.

^{٣٩٧} سورة الحجر: ٩.

الثابت الذي لا يتغير على مَرَّ العصور، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف في استعمال الحق، وظنّوا أنهم جاؤوا بجديد، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقٌّ ويتعسف في استعمال حقه. ثم سافر إلى هناك محام من بني سويف للدراسة، فقرأ عن القانون الجديد الذي ادعوا سبق إليه، فأخبرهم أن هذا القانون الذي تدعونه لأنفسكم قانون إسلامي ثابت وموجود في سُنَّة رسول الله ﷺ، فعمدوا إلى كتب السيرة، فوجدوا قصة الرجل الذي شكّا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته، أو أنها تميل في بيته، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته، فماذا كان حكم الرسول ﷺ في هذه المسألة؟

هذا الرجل له حَقٌّ في النخلة، فهي مِلْكٌ له، لكنه تعسف في استعمال حقه، وأتى بما لا يليق من المعاملة، فالمفروض ألاّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة، مثل: تقليمها، أو تلقيحها، أو جمع ثمارها.

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل، وقال له: «إما أن تهبَ له هذه النخلة، وإما أن تبيعها له، وإما قطعناها». أليس ذلك من الحق الذي سبق به

الإسلام؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس؟ أضف إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشارات في معنى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وعلى الحق الذي هو رسول الله ﷺ نزل القرآن، كما تقول: ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان. أي: نزلت عنده أو عليه. ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣٩٨)، والبشارة تكون بالخير، والنذارة تكون بالشر، ويُشترط في التبشير والإنذار أن تُعطى للمبشّر أو للمُنذر فرصة يراجع فيها نفسه، ويُعدّل في سلوكه، وإلا فلا فائدة ولا جدوى منهما، فتُبشّر بالجنة وتُنذر بالنار في مُتّسع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار. ومثال ذلك: أنك تُبشّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد، وتحذره من الفشل إن أهمل، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان، بل في مُتّسع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد. والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته رسولاً عليه البلاغ بالبشارة والنذارة، فلا يُحمّل نفسه فوق طاقتها؛ لأنه ليس مُلزماً بإيمان القوم، كما

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي: مُهلكها حُزناً على عدم إيمانهم، وفي آية أخرى
قال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣٩٩)، فكأنه سبحانه
يُخَفِّفُ الْعِبَاءَ عَنْ رَسُولِهِ، ويدعوه أَلَّا يُتَعِبَ نَفْسَهُ فِي دَعْوَتِهِمْ، فما عليه
إلا البلاغ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان. لكن حِرْصَ رَسُولِ
الله ﷺ على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولي عليه، لِحَصْحَا فِي
قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ﴾. فالنبي
ﷺ كامل الإيمان، ويجب لقومه أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، حتى أعداؤه الذين
وقفوا في وجه دعوته كان إلى آخر لحظة في الصراع يرجو لهم الإيمان
والنجاة؛ لذلك لما مُكِّنَ مِنْهُمْ لَمْ يَعالِجْهُمْ بِالْعَقُوبَةِ، بل قال: ﴿بَلْ أَرْجُو
أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾. وفعلاً
صدق الله ورسوله، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حَمَلُوا رَايَةَ الدِّينِ،
وكانوا سيوفاً على أعدائه، أمثال عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن
العاص، وخالد بن الوليد، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْلِ

هؤلاء حال كفرهم في معارك الإسلام الأولى، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكنهم من هؤلاء لحكمة، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣٠٠).

قال الطبراني: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾؛ أي أنزلنا إليكم القرآن آياتٍ ظاهرات واضحات لتعملوا بها. وقيل: يعني بذلك ما ذكر في هذه السورة من الحلال والحرام. وقوله تعالى: وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ؛ أي وأنزل فيها مثلاً؛ أي خبراً من خبر الذين مضوا من قبلكم لتعتبروا، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ عن الشُّرك والفواحش».

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٣٠١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى، مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

^{٣٠٠} سورة النور: ٣٤.

^{٣٠١} سورة الزمر: ٤١.

أَلَكِتَبَ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن؛ لتنذرهم به، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾، أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٤٠٢)، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٤٠٣)، ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٠٤﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْقَرُونَ﴾^(٤٠٤)، فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ

^{٤٠٢} سورة هود: ١٢.^{٤٠٣} سورة الرعد: ٤٠.^{٤٠٤} سورة الأنعام: ٦٠، ٦١.

حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَجْتَمِعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَنَدَةَ وَغَيْرُهُ. وَفِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ﴿قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ﴾، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: تَقْبُضُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ إِذَا مَاتُوا، وَأَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِذَا نَامُوا، فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ تَتَعَارَفَ ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الَّتِي قَدْ مَاتَتْ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى. قَالَ السَّيِّدِي: إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَجْلِهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُمْسِكُ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ، وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا يَغْلُظُ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠٥﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قال ابن كثير: «يقول تعالى، آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٤٠٦)، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَدِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٤٠٧)، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَنِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٠٨﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَعَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٠٩﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤٠٨)، وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى

٤٠٥ سورة الأنعام: ١٦٢.

٤٠٦ سورة البقرة: ١٣٠.

٤٠٧ سورة الحج: ٧٨.

٤٠٨ سورة النحل: ١٢٠-١٢٣.

هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام. وقد قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص، حدثنا أحمد بن عصب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، أنبأنا سلمة بن كهيل، سمعت زر بن عبد الله الهمداني يحدث عن ابن أبزى عن أبيه، قال: ﴿كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: الحنيفية السمحة﴾، وقال أحمد أيضاً: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنه﴾. قال عبد الرحمن عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: ﴿قال رسول الله ﷺ يومئذ:

لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفة سمحة^{٤٠٩}، وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، والله الحمد والمنة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾^(٤٠٩) أي: أخلص له صلاتك وذبحك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ النسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي والضحاك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد ابن عوف، حدثنا أحمد بن خالد الذهبي، حدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس،

^{٤٠٩} سورة الكوثر: ٢.

عن جابر بن عبد الله قال: ﴿صَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ عِيدِ النحر بكشين، وقال حين ذبحهما: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٠)، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١١)، وقوله عز وجل: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي: من هذه الأمة، وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١٢)، وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

^{١٠} سورة الأنعام: ٧٩.^{١١} سورة الأنبياء: ٢٥.^{١٢} سورة يونس: ٧٢.

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»^(٤١٣)، وقال يوسف عليه السلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»^(٤١٤)، وقال موسى: «يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»^(٤١٥)، وقال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ»^(٤١٦)، وقال تعالى: «وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ»^(٤١٧)، فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصوره وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات،

^{٤١٣} سورة البقرة: ١٣٠-١٣٢.

^{٤١٤} سورة يوسف: ١٠١.

^{٤١٥} سورة يونس: ٨٤-٨٦.

^{٤١٦} سورة المائدة: ٤٤.

^{٤١٧} سورة المائدة: ١١١.

ديننا واحد❦؛ فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمّهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمّهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا: بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة. والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي رضي الله عنه: ❦ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر، استفتح، ثم قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر الآية، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك❦، ثم

ذكر تمام الحديث في ما يقوله في الركوع والسجود والتشهد، وقد رواه مسلم في صحيحه.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(٤١٨).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فذكر يا محمد بهذا القرآن الذي أنزلته إليك من يخاف الوعيد الذي أوعده من عصاني وخالف أمري. حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، قال: ثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو الملائي، عن ابن عباس، قال: قالوا يا رسول الله لو خوَّفنا؟ فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام، عن أيوب بن سيار أبي عبد الرحمن، عن عمرو بن قيس، قال: قالوا: يا رسول الله، لو ذكَّرتنا، فذكر مثله.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٤﴾﴾^(٤١٩).

قال ابن كثير: «يقول تعالى، مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن، ذكره في أول السورة في قوله:

^{٤١٨} سورة ق: ٤٥.

^{٤١٩} سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾^(٤٢٠) الآية، ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك، وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
 الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن
 عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك
 والزهري وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه
 كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
 مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٢١)، وقال مجاهد: من
 كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِّنَ
 الْمُنذِرِينَ﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ
 الأعلى ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص
 ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه
 وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له. وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
 مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه بلسانك العربي
 الفصيح الكامل الشامل؛ ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعدر، مقيماً

^{٤٢٠} سورة الأنبياء: ٢.

^{٤٢١} سورة البقرة: ٩٧.

للحجة، دليلاً إلى المحجة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي، حدثنا عباد بن عباد المهلبى عن موسى بن محمد عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: ﴿بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن، إذ قال لهم: كيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها! قال: فكيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكناها! قال: فكيف ترون جونها؟ قالوا: ما أحسنه وأشد سواده! قال: فكيف ترون رحاها استدارت؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها! قال فكيف ترون برقها؟ أوميض أم خفوف، أم يشق شقاء؟ قالوا: بل يشق شقاء. قال: الحياء الحياء، إن شاء الله. قال: فقال رجل: يا رسول الله بأبي وأمي، ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: حق لي؛ وإنما أنزل القرآن بلساني، والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية، رواه ابن أبي حاتم».

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤٢٢).

قال ابن كثير: «أي: وإن ذكر نزوله لفي كتب الأولين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمد ﷺ في كتب الأولين. كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٤٢٣) والزُّبُرُ الكتب، الواحد زُبُور، كرسول ورسول».

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٤٢٤).

قال الشنقيطي، في «أضواء البيان»: «﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلاً، وأكد بالمصدر تأكيداً لإرادة هذا المعنى، كما قال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذ الشعر؟ قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. وقد بينت أم سلمة رضي الله عنها ﴿تلاوة رسول الله ﷺ بقولها: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾﴾^(٤٢٥) رواه أحمد.

^{٤٢٢} سورة الشعراء: ١٩٦.

^{٤٢٣} سورة الأعراف: ١٥٧.

^{٤٢٤} سورة المزمل: ٤.

^{٤٢٥} سورة الفاتحة: ١-٤.

وفي الصحيح عن أنس: ﴿سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، قال: كنت مداً، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد «بسم الله» ويمد «الرحمن»، ويمد «الرحيم»﴾.

تنبيه: إن للمد حدوداً معلومة في التجويد، بحسب تلقي القراء، رحمهم الله، فما زاد عنها فهو تلاعب، وما قلَّ عنها فهو تقصير في حق التلاوة. ومن هذا يعلم أن المتخذين القرآن كغيره في طريقة الأداء من تمطيط وتزيد لم يراعوا معنى هذه الآية الكريمة، ولا يمنع ذلك تحسين الصوت بالقراءة، كما في قوله ﷺ: ﴿زينوا القرآن بأصواتكم﴾. وقال أبو موسى، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ: لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرتة لك تحبيراً. وهذا الوصف هو الذي يتأتى منه الغرض من التلاوة، وهو التدبر والتأمل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٤٢٦)، كما أنه هو الوصف الذي يتأتى معه الغرض من تخشع القلب، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ

اللَّهُ^(٤٢٧)، ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلاً، فإذا كان كالشعر أو الكلام العادي لما فهم، وإذا كان مطرباً كالأغاني لما أثر. فوجب الترتيل كما بين ﷺ.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ ⬥ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا^(٤٢٨).

قال سيد قطب في كتابه «في ظلا القرآن»: «إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير... فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره، ﴿فقال لخديجة، رضي الله عنها، وهي تدعوه أن يطمئن وينام: مضى عهد النوم يا خديجة!﴾ ⬥ أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهد الطويل الشاق! ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ ⬥ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ⬥ نَضْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ⬥ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

^{٤٢٧} سورة الزمر: ٢٣.

^{٤٢٨} سورة المزمّل: ٧-٨.

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا^(٤٢٩)... إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة... قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل... قيامه للصلاة وترتيل القرآن. وهو مد الصوت به وتجويده بلا تغن ولا تطريب، ولا تخلع في التنغيم).

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(٤٣٠). قال ابن الجوزي: «قرأ عليّ، عليه السلام، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو رزين، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والأعرج، وأبو رجاء، وابن محيصن: «فرّقناه» بالتشديد. وقرأ الجمهور بالتخفيف. فأما قراءة التخفيف، ففي معناها ثلاثة أقوال: أحدها: بيّنا حلاله وحرامه، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: فرقنا فيه بين الحق والباطل، قاله الحسن.

والثالث: أحكمناه وفصلناه، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٤٣١)، قاله الفراء. وأما المشددة، فمعناها: أنه أنزل متفرّقا، ولم

^{٤٢٩} سورة المزمل: ٤-١.

^{٤٣٠} سورة الإسراء: ١٠٦.

^{٤٣١} سورة النخان: ٤.

ينزل جملة واحدة. قوله تعالى: ﴿لَتَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ قرأ أنس، والشعبي، والضحاك، وقتادة، وأبو رجاء، وأبان عن عاصم، وابن محيصن: بفتح الميم؛ والمعنى: على تودة وترسل ليتدبروا معناه.

أعمال عظيمة وجميلة:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى
وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ
خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤٣٢).

قال ابن الجوزي: «أي: أقل ﴿مِنْ ثُلْثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾، وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة بفتح الفاء والثاء، والباقون: بكسرهما. قوله تعالى: ﴿وَطَافِقَةً مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعلم مقاديرهما، فيعلم القدر الذي يقومون به من الليل ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾، وفيه قولان: أحدهما: لن تطيقوا قيام ثلثي الليل، ولا ثلث

الليل، ولا نصف الليل، قاله مقاتل.

والثاني: لن تحفظوا مواقيت الليل، قاله الفراء. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يعني: في الصلاة، من غير أن يوقت وقتاً. وقال الحسن: هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء. ثم ذكر أعمارهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَى﴾ فلا يطيقون قيام الليل، ﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهم المسافرون للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه، فلا يطيقون قيام الليل، ﴿وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المجاهدون، فلا يطيقون قيام الليل، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وذكروا أن هذا نسخ عن المسلمين بالصلوات الخمس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلوات الخمس في أوقاتها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة في صلة الرحم، وقرى الضيف ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: تجدوا ثوابه في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة: المعنى: تجدوه خيراً. قال الزجاج: ودخلت «هو» فصلاً. وقال المفسرون:

ومعنى «خيراً» أي: أفضل مما أُعطيتم ﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ من الذي تؤخرونه إلى وقت الوصية عند الموت».

سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ١).

قال القرطبي: «شرح الصدر: فتحه؛ أي ألم نفتح صدرك للإسلام؟ وروى أبو صالح، عن ابن عباس، قال: ألم نُلين لك قلبك. وروى الضحاك، عن ابن عباس، قال: ﴿قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: نعم وينفسح. قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: نعم؛ التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت، قبل نزول الموت﴾، وروى عن الحسن قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: مُلِئَ حِكْماً وَعِلْماً. وفي الصحيح عن أنس بن مالك: عن مالك بن صعصعة - رجلٍ من قومه - ﴿أن النبي ﷺ قال: فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، فِيهَا مَاءٌ زَمْزَمٌ، فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا، قَالَ قَتَادَةُ قُلْتُ: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِي، قَالَ: فَاسْتَخْرِجْ قَلْبِي، فَعُغِّلَ قَلْبِي بِمَاءٍ

زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة ﴿﴾، وفي الحديث قصة. وروي عن النبي ﷺ ﴿﴾ قال: جاءني ملكان في صورة طائر، معهما ماء وثلج، فشرح أحدهما صدري، وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله ﴿﴾ وفي حديث آخر قال: ﴿﴾ جاءني ملك فشق عن قلبي، فاستخرج منه عذرة، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، وأذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك قُثم، وأنت قيم ﴿﴾ قال أهل اللغة: قوله: «وكيع» أي يحفظ ما يوضع فيه. يقال: سقاء وكيع؛ أي قوي يحفظ ما يوضع فيه. واستوكعت معدته، أي قويت. وقوله «قُثم» أي جامع. يقال: رجل قُثوم للخير؛ أي جامع له. ومعنى «أَلَمْ نَشْرَحْ» قد شرحنا؛ الدليل على ذلك قوله في النسق عليه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، فهذا عطف على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال: ونضع عنك وزرك. فدل هذا على أن معنى «أَلَمْ نَشْرَحْ»: قد شرحنا. و«لم» جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد رجع إلى التحقيق؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

أَلْحَاكِمِينَ^(٤٣٣)، ومعناه: الله أحكم الحاكمين. وكذا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ^(٤٣٤)﴾، ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ
المعنى: أنتم كذا^(٤٣٥).

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ^(٤٣٦) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ^(٤٣٧) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ^(٤٣٨)﴾.

قال الطبراني: «﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾؛ أي حَطَّطْنَا عَنْكَ ذَنْبَكَ، كما قال تعالى في آيةٍ أُخْرَى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ^(٤٣٩)﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾؛ أي أَثْقَلَ ظَهْرَكَ، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ أي شَرَّفْنَاكَ وَعَظَّمْنَا قَدْرَكَ بِمَا أَوْجَبْنَاهُ عَلَى خَلْقِنَا مِنَ التَّصَدِيقِ بِنَبِيِّتِكَ. وَقِيلَ: معناه: قَرَنَّا ذِكْرَكَ بِذِكْرِنَا، فَلَا يُذَكَّرُ اللَّهُ إِلَّا وَتُذَكَّرُ مَعَهُ فِي كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَالْأَذَانِ وَالْخُطْبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ».

^{٤٣٣} سورة النّين: ٨.

^{٤٣٤} سورة الزمر: ٣٦.

^{٤٣٥} سورة الشرح: ٢-٤.

^{٤٣٦} سورة الفتح: ٢.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٤٣٧).

قال الشنقيطي: «﴿الْكَوْثَرَ﴾: فَوْعَلٌ، من الكثرة. و﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ قرئ: «أنطيناك»، بإبدال العين نوناً، وليست النون مبدلة عن العين، كإبدال الألف من الواو أو العين في الأجوف ونحوه، ولكن كلاً منها أصل بذاته، وقراءة مستقلة. قاله أبو حيان. واختلف في الكوثر. فقليل: علم، وقيل: وصف. وعلى العلمية قالوا: إنه علم على نهر في الجنة، وعلى الوصف قالوا: الخير الكثير. ومما استدل به على العلمية ما جاء في السنة من الأحاديث الصحاح، ذكرها ابن كثير وغيره. وفي صحيح البخاري عن أنس قال: ﴿لما عرج برسول الله ﷺ إلى السماء قال: أتيت نهرًا حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر﴾. وبسنده أيضاً ﴿عن عائشة رضي الله عنها، سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليهما در مجوف، آنيته كعدد النجوم﴾. وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر:

قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير، الذي أعطاه الله إياه. وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد، رحمه الله، ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك، قال: ﴿أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه نزلت عليّ آناً سورة، فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها، فقال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٣٨).

قال الإمام الطبراني، في «التفسير الكبير»: «قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وأَمْرٌ لَهُ أَنْ يَبْلُغَ النَّاسَ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ مِنَ الْقُرْآنِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ مَعْنَاهُ: إِنْ لَمْ تَبْلُغْ آيَةً مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، أَوْ حُكْمًا أَمَرْتَ بِتَبْلِيغِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ شَيْئًا مِنَ الرِّسَالَةِ؛ أَيِ يَحْصُلُ لَكَ الثَّوَابُ الْمَوْعُودُ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ مِنْ قَبْلِ، وَإِنْ كَتَمْتَ آيَةً وَاحِدَةً تَحْبُطُ ثَوَابَ مَا بَلَغَ مِنَ الرِّسَالَةِ. يَقَالُ: إِنْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أُمِرَ بِشَيْءٍ خَاصٍّ تَأَنَّى قَلِيلًا عَنْ تَبْلِيغِهِ حَذَرًا وَخَوْفًا أَنْ يَبْتَلِيَهُ اللَّهُ، كَمَا ابْتَلَى قَبْلَهُ إِبْرَاهِيمَ بِالنَّارِ، وَإِسْمَاعِيلَ بِالذَّبْحِ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى بِالْقَتْلِ، وَكَانَ ﷺ عَازِمًا عَلَى فَعْلٍ مَا أُمِرَ بِهِ مَعَ خَوْفِهِ، فَقِيلَ لَهُ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتَ بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَعَبَتَ دِينَهُمْ فَقَدْ بَطَلَ جَمِيعُ مَا فَعَلْتَ مِنْ قَبْلِ التَّبْلِيغِ، كَأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ شَيْئًا مِنَ الرِّسَالَةِ، وَلِهَذَا قُرَأَ نَافِعُ وَابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ: «رِسَالَاتِهِ» بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَقَدْ يُذَكَّرُ الْوَاحِدُ وَيُرَادُ بِهِ الْجَمَاعَةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أَمَانٌ مِنَ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَيْ لَا يَخَافَ وَلَا يَحْذَرُ، كَمَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: ﴿أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا

دَخَلَ الْمَدِينَةَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا ذُووُ عُدَدٍ وَنَاسٍ، فَإِنْ لَمْ تَرْجِعْ قَابِلَنَاكَ، وَإِنْ رَجَعْتَ زَوَدْنَاكَ وَأَكْرَمْنَاكَ. فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْرِسُهُ مِائَةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ يَبْتَئُونَ عِنْدَهُ، وَيَخْرُجُونَ مَعَهُ خَوْفًا مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ، فَقَالَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: أَنْصَرُوا إِلَى رِجَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الْيَهُودِ، فَكَانَ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ وَحْدَهُ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَعِنْدَ السَّحَرِ إِلَى أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ وَحَيْثُ مَا شَاءَ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ، مَعَ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ وَقِلَّةِ أَعْوَانِهِ، فَعَاشَ حَمِيدًا وَمَاتَ سَعِيدًا، ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي لَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى دِينِهِ وَحُجَّتِهِ، وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

وقال مكي القيسي: «قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ المعنى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: أَكَّدَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي تَبْلِيغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرْفُقُ بِالنَّاسِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَابْتِدَائِهِ، فَأَمَرَ بِالِاجْتِهَادِ فِي التَّبْلِيغِ. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أَي: إِنْ تَرَكْتَ آيَةً وَكْتَمْتَهَا لَمْ تَبْلُغْ رِسَالَتَهُ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: إِنْ «لَمْ» تَبْلُغْ ذَلِكَ مَعْلَنًا،

غير مُتَوَقِّ أمرًا، فما بلغت، وهو مثل قوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(٤٣٩)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أمره تعالى بالتبليغ، وأخبره بالعصمة من الناس. قال ابن جبير: ﴿لما نزلت ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال رسول الله ﷺ: لا تحرسوني، فإن ربي قد عصمني. وكان ناس من أصحابه يتعقبونه في الليل، فلما نزلت ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قال: يا أيها الناس! اَحْقُوا بملاحقكم، فإن الله قد عصمني من الناس﴾، وروي أن النبي ﷺ كان إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي فخرط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: الله، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى «انْتَثَرَ» دماغه، فأنزل الله ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقيل: كان النبي ﷺ يخاف قريشاً، فلما نزلت هذه الآية، استلقى ثم قال: من شاء فليَخِذْ لِي، مَرَّتَيْنِ أو ثلاثاً».

قال الطبري: «وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قصَّ الله تعالى قصصهم في

هذه السورة، وذكر فيها معاييهم وخبث أديانهم واجترأهم على ربهم، وتوثبهم على أنبيائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إياه، ورداءة مطامعهم ومآكلهم، وسائر المشركين غيرهم، ما أنزل عليه فيهم من معاييهم والإضرار عليهم والتقصير بهم والتهجين لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يشعر نفسه حذراً منهم أن يصيبه في نفسه مكروه، ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وأن لا يتقي أحداً في ذات الله، فإن الله تعالى كافيه كل أحد من خلقه، ودافع عنه مكروه كل من يتقي مكروهه. وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك، وإن قل ما لم يبلغ منه، فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلغ من تنزيله شيئاً. وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

حدثني المثنى، قال: ثنا عبد الله بن صالح، قال: ثني معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل عليك من ربك، لم تبلغ رسالتي.

حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: ﴿يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أخبر الله نبيه ﷺ أنه سيكفيه الناس ويعصمه منهم، وأمره بالبلاغ. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قيل له: لو احتجبت! فقال: والله لأُبْدِينَ عَقْبِي لِلنَّاسِ ما صَاحَبْتُهُمْ.

وحدثني الحارث بن محمد، قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا سفيان الثوري، عن رجل، عن مجاهد، قال: لما نزلت: ﴿بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال ﷺ: إنما أنا واحدٌ، كيف أصنع؟ تَجْتَمِعُ عَلَيَّ الناسُ! فنزلت: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية. وحدثنا هناد وابن وكيع، قالا: ثنا جرير، عن ثعلبة، عن جعفر، عن سعيد بن جبیر، قال: ﴿لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال رسول الله ﷺ: لا تَحْرُسُونِي إِنَّ رَبِّي قَدْ عَصَمَنِي. وحدثني يعقوب بن إبراهيم وابن وكيع، قالا: ثنا ابن عُلَية، عن الجريري، عن عبد الله بن شقيق: ﴿أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْتَقِبُهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ خَرَجَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ احْتَفُوا بِمَلَأِ حَقِّكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ النَّاسِ.﴾

وحدثنا هناد، قال: ثنا وكيع، عن عاصم بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كان النبي ﷺ يتحارسه أصحابه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ إلى آخرها. وحدثني المثنى، قال: ثنا مسلم بن إبراهيم، قال: ثنا الحارث بن عبيدة أبو قدامة الإيادي، قال: ثنا سعيد الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة، قالت: ﴿كان النبي ﷺ يُحْرَسُ، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ! انْصَرِفُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي.﴾

وحدثنا عمرو بن عبد الحميد، قال: ثنا سفيان، عن عاصم، عن القرظي: أن رسول الله ﷺ ما زال يُحْرَسُ حتى أنزل الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية، فقال بعضهم: نزلت بسبب أعرابي كان همّ بقتل رسول الله ﷺ، فكفاه الله إياه. وقال آخرون: بل نزلت لأنه كان يخاف قريشاً، فأومن من ذلك.

وحدثنا هناد، قال: ثنا وكيع، عن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق،

قال: قالت عائشة: من حدثك أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وحدثني المثنى، قال: ثنا عبد الله بن صالح، قال: ثني الليث، قال: ثني خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن الحميم، عن مسروق بن الأجدع، قال: دخلت على عائشة يوماً، فسمعتها تقول: لقد أعظم الفرية من قال: إن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. ويعني بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء، وأصله من عصام القربة، وهو ما توكلأ به من سير وخيط، ومنه قول الشاعر:

وَقُلْتُ عَلَيْكُمْ مَالِكاً إِنَّ مَالِكاً سَيَعْصِمُكُمْ إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ عَاصِمٌ
يعني: يمنعكم. وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإنه يعني: إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئته به من عند الله، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيها فرض عليه وأوجهه».

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾^(٤٤٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤٤١).

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»: «قال ابن عباس: هذا عام للبرِّ والفاجر، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة. وقال ابن زيد: هو رحمة لمن آمن به خاصة».

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، إلى الخلائق إلا رحمة لهم. لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في

^{٤٤٠} سورة الإنسان: ٢٣.

^{٤٤١} سورة الأنبياء: ١٠٧.

نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(٤٤٢). وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال. والأول أظهر. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أنه ما أرسله إلا رحمة للعالمين يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق في ما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤٤٣)، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾^(٤٤٤). وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله قال: ﴿قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة﴾^(٤٤٥).

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

^{٤٤٢} سورة إبراهيم: ٢٨.

^{٤٤٣} سورة العنكبوت: ٥١.

^{٤٤٤} سورة القصص: ٨٦.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(٤٤٥).

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الأميون: هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤٤٦)، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر؛ كما قال تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(٤٤٧)، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٤٤٨). وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٤٤٩). وقوله: ﴿لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٤٥٠)، وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ﴾^(٤٥١)، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم،

٤٤٥ سورة الجمعة: ٢.

٤٤٦ سورة آل عمران: ٢٠.

٤٤٧ سورة الزخرف: ٤٤.

٤٤٨ سورة الشعراء: ٢١٤.

٤٤٩ سورة الأعراف: ١٥٨.

٤٥٠ سورة الأنعام: ١٩.

٤٥١ سورة هود: ١٧.

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله سبحانه وتعالى، وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي: نزرأ يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم، كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار

وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع، وجمع له تعالى، وله الحمد والمنة، جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين».

وفي صحيح مسلم، ومسنند أحمد، قال رسول الله ﷺ: ﴿آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتَحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بَكَ أَمَرْتُ؛ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ﴾^(٤٥٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٤٥٣). قال الطبراني: «أَيُّ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فِي الْقُرْآنِ؛ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله لا شريك له؛ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يا أهل مكة؛ مسلمون مخلصون له بالعبادة والتوحيد».

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﷻ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٤٥٤).

^{٤٥٢} صحيح مسلم ١٣٠/١، وينظر مسند أحمد ١٣٦/٣.

^{٤٥٣} سورة الأنبياء: ١٠٨.

^{٤٥٤} سورة الفتح: ٨، ٩.

قال الطبراني: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾
 قُرِئَ بِالتَّاءِ فِي الْأَرْبَعَةِ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لَتُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقُرِئَ بِالْيَاءِ
 «لِيُؤْمِنُوا...» فِي الْأَرْبَعَةِ أَيْضًا؛ يَعْنِي: مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ أَيِ يُعِينُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ بِالسَّيْفِ
 وَاللِّسَانِ، وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمِيعِ: (وَتُعَزِّرُوهُ) بِزَايَيْنِ، وَقَوْلُهُ:
 ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أَيِ وَتُعَظِّمُوهُ وَتُبَجِّلُوهُ، وَهَذَا وَقَفْتُ تَامًّا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أَيِ وَتَسْبَحُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، «بُكْرَةً وَأَصِيلًا»؛ أَيِ
 يُصَلُّونَ لَهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (وَتُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا)».

وقال مكي بن أبي طالب القيسي: «﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ
 وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أَيِ: فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِكَ يَا مُحَمَّدُ، لِيُؤْمِنَ بِكَ (مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ
 اللَّهِ) أَنَّهُ يُؤْمِنُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعَزَّرُوهُ: يَعْنِي الْإِجْلَالُ، وَتَوَقَّرُوهُ هُوَ
 التَّعْظِيمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَتَعَزَّرُوهُ: تَنْصُرُوهُ، وَتَوَقَّرُوهُ: تَفْخِمُوهُ. وَقَالَ
 عِكْرَمَةُ: تَعَزَّرُوهُ: تَقَاتِلُونَ مَعَهُ بِالسَّيْفِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَتَعَزَّرُوهُ
 وَتَوَقَّرُوهُ: هُوَ الطَّاعَةُ لِلَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: تَعَزَّرُوهُ: تَبَالُغُوا فِي تَعْظِيمِهِ،

ومنه عزز السلطان الإنسان؛ أي: بالغ في أدبه في ما دون الحد. وقال علي بن سليمان: معنى وتعزروه: يمنعون منه وتنصرونه». وقال الطبري: «معنى التعزير في هذا الموضع المعونة بالنصر. وقرأ الجحدري: تعزروه بالتخفيف. وقرأ محمد اليماني: وتعزروه بالزائين، من العز؛ أي: تجعلونه عزيزاً ويقال: عززه يعززه جعله عزيزاً وقواه، ومنه قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾^(٤٥٥). وقيل إن قوله: وتعزروه وتوقروه لله. وقيل هو للنبي ﷺ فأما «وتسبحوه» فلا تكون إلا لله؛ وتنزهوا الله عن السوء، في بعض القراءات وتسبحوا الله. وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: طرفان تصلون لله في هذين الوقتين».

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﷻ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﷻ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾^(٤٥٦).

جاء في «المنتخب» - لجنة القرآن والسنة: «إنا فتحنا لك - يا محمد - فتحاً عظيماً مبيناً بانتصار الحق على الباطل، ليغفر لك الله ما تقدم مما يُعَدُّ

^{٤٥٥} سورة يس: ١٣.

^{٤٥٦} سورة الفتح: ١-٣.

لمثل مقامك ذنباً، وما تأخر منه، ويكمل نعمته عليك بانتشار دعوتك،
وَيُثَبِّتَكَ عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وينصرك الله على أعداء رسالتك نصراً
قوياً غالياً.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤٥٧).

قال القرطبي: «فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد:
على خُلُقٍ، على دينٍ عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا
أرضى عنده منه. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خُلُقَهُ ﷺ كان
القرآن. وقال عليّ، رضي الله عنه، وعَطِيَّة: هو أدب القرآن. وقيل: هو
رفقه بأمرته وإكرامه إياهم. وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله
وينتهي عنه مما نهى الله عنه. وقيل: أي إنك على طبع كريم. وقال
الماوردي: وهو الظاهر. وحقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان
نفسه من الأدب يُسَمَّى خُلُقاً؛ لأنه يصير كالخُلقة فيه. وأما ما طُبِع عليه
من الأدب فهو الخِيم (بالكسر): السَّجِيَّة والطبيعة، لا واحد له من

لفظه. وخيم: اسم جبل. فيكون الخلق الطبع المتكلف. والخيم الطبع الغريزي. وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذو الفضول ضنَّ على المؤلى وعادت لخيرها الأخلاق
أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

قلت: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال. وسئلت أيضاً عن خلقه ﷺ؛ فقرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر. وقال الجنيّد: سُمِّيَ خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى. وقيل سُمِّيَ خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليه قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لِأَتَمِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ﴾ وقيل: لأنه امثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤٥٨)، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: ﴿أَدَّبَنِي رَبِّي تَأْدِيباً حَسَنًا

إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

الثانية: روى الترمذي عن أبي ذرّ قال: ﴿قال رسول الله ﷺ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حَسَنٍ﴾، قال حديث حسن صحيح. وعن أبي الدرداء: ﴿أن النبي ﷺ قال: ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَنٍ، وإن الله تعالى لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ﴾، قال: حديث حسن صحيح. وعنه قال: ﴿سمعت النبي ﷺ يقول: ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الْخُلُقِ، وإن صاحب حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّلَاةِ وَالصُّومِ﴾، قال: حديث غريب من هذا الوجه. وعن أبي هريرة قال: ﴿سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فقال: تقوى الله وحسن الخُلُقِ. وسئل عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فقال: الفَمَ وَالْفَرْجَ﴾، قال: هذا حديث صحيح غريب. وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حُسْنَ الْخُلُقِ، فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكَفَّ الأذى. وعن جابر: ﴿أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ

مَنِّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً - قال - وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنَا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون ﴿٤٥٩﴾. قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٤٥٩).

قال ابن كثير: «قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾» (٤٦٠). وفي الصحيح: ﴿والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين﴾، وفي الصحيح

٤٥٩ سورة الأحزاب: ٦.

٤٦٠ سورة النساء: ٦٥.

أَيْضاً: ﴿أَنْ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ ﷺ: لَا يَا عَمْرُ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ ﷺ: الْآنَ يَا عَمْرُ﴾، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة: حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا محمد بن فليح، حدثنا أبي عن هلال بن علي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنِ شِئْتُمْ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فَأَيُّ مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالاً، فَلِيرِثَهُ عَصْبَتُهُ مِنْ كَانُوا، وَإِنْ تَرَكَ دِيناً أَوْ ضِياعاً، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ﴾، تفرد به البخاري، ورواه أيضاً في الاستقراض، وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن فليح به مثله، ورواه أحمد من حديث أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الحجرات: ٢).

قال الطبراني: «روى: أَنَّ رَهْطًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، مِنْهُمْ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُطَارْدُ ابْنِ الْحَاجِبِ وَالْحَارِثُ بْنُ عَمْرِو وَغَيْرُهُمْ، فَقَامُوا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَنَادَى الْأَقْرَعُ ابْنَ حَابِسٍ: يَا مُحَمَّدُ أَتَأْذَنُ لِي فِي الْكَلَامِ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ وَذَمِّي لَشَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: كَذَبْتَ! ذَلِكُمُ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَأْذَنُ لِحَطِيبِنَا؟ فَقَالَ ﷺ: ادْعُوا إِلَيَّ ثَابِتَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ شَمَّاسٍ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: لِيَتَكَلَّمَ صَاحِبُكُمْ. فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ ﷺ: أَجِبْ يَا ثَابِتَ، فَأَجَابَهُ.

فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِذْنٌ لِشَاعِرِنَا يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ ﷺ: ادْعُوا إِلَيَّ الْقَارِعَةَ (يَعْنِي حَسَّانَ)، فَلَمَّا جَاءَ حَسَّانُ قَالَ ﷺ: لِيَتَكَلَّمَ شَاعِرُكُمْ. فَلَمَّا تَكَلَّمَ ﷺ: أَجِبْهُ يَا حَسَّانُ، فَأَجَابَهُ. فَقَالَ عُطَارْدُ لِلْأَقْرَعِ: وَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا الْمُؤْتَى لَهُ - أَيُّ أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ - فَإِنَّ حَطِيبَهُ أَخْطَبُ مِنْ حَطِيبِنَا، وَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا.

وَعَلَتِ الْأَصْوَاتُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ صَوْتًا وَأَعْلَاهُمْ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ بِهِ صَمَمٌ لَا يَكَادُ يَسْمَعُ إِلَّا أَنْ يُصَاحَ بِهِ فَيَجِيبُ بِمِثْلِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَنُهِوا أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عَلَى صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ تَعْظِيمًا لَهُ؛ لِأَن رَفَعَ الصَّوْتِ عَلَى الْإِنْسَانِ يُوهِمُ الْإِسْتِخْفَافَ بِهِ فِي ظَاهِرِ الْحَالِ.

وعن جابر بن عبد الله قال: لَمَّا جَاءَ بَنُو تَمِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَادَوْا عَلَى الْبَابِ: أَخْرِجْ يَا مُحَمَّدُ؛ فَإِنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ وَذَمُّنَا شَيْنٌ، قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكُمُ اللَّهُ الَّذِي مَدَحُهُ زَيْنٌ وَذَمُّهُ شَيْنٌ. قَالُوا: نَحْنُ أَنْاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، جِئْنَا بِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا لِشَاعِرِكُمْ وَنُفَاخِرِكْ، فَقَالَ ﷺ: مَا بِالشَّعْرِ بُعِثَتْ وَلَا بِالْفَخَارِ أُمِرْتُ، وَلَكِنْ هَاتُوا. فَقَالَ: لِشَابٍّ مِنْ شَبَابِهِمْ: قُمْ يَا فَلَانُ فَادْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ، وَآتَانَا أَمْوَالًا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرِهِمْ عُدَّةً وَسِلَاحًا وَمَالًا، فَمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بِقَوْلٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا، وَفِعَالٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِنَا. فَقَالَ ﷺ: لثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ خَطِيبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: قُمْ! فَقَامَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأُسْتَعِينُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا

شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجُوهًا وَأَعْظَمَهُمْ أَخْلَاقًا فَأَجَابُوهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا أَنْصَارَهُ، وَرَدَّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَعَزَّ الْمَدِينَةَ. فَحَنُّ نُقَاتِلِ النَّاسِ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ، وَمَنْ أَبَاهَا قَتَلْنَاهُ، وَكَانَ قَتْلُهُ فِي اللَّهِ عَلَيْنَا هَيْنًا، أَقُولُ قَوْلِي وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

فَقَالُوا لِشَابٍّ مِنْهُمْ: قُمْ يَا فَلَانُ فَقُلْ أَيْبَاتًا تَذْكُرُ فِيهَا فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ الشَّابُّ وَقَالَ:

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا مِنَّا الرُّؤُوسُ وَفِينَا تَقَسُّمُ الرَّبْعِ وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمْ لَحْمَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْقَزْعُ إِنَّا أَبِينَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ فَقَالَ ﷺ: أَجِبْهُ يَا حَسَّانُ. فَقَالَ:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلَّ الْخَيْرِ يَصْطَنِعُ ثُمَّ قَالَ حَسَّانُ أَيْضًا:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ عَنُوهُ عَلَى رَغَمِ عَاتٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرٍ
بَضْرِبِ كَايِزَاعِ الْمُخَاضِ مَشَاشُهُ وَطَعْنِ كَأَفْوَاهِ اللَّقَاحِ الصَّوَادِرِ
وَسَلِّ أَحَدًا لَمَّا اسْتَقَلَّتْ شِعَابُهُ بَضْرِبِ لَنَا مِثْلَ اللَّيْثِ الْخَوَادِرِ
أَلْسَنَا نَحْوُصِ الْخَوْصِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى

إِذَا طَابَ وَرَدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ
وَنَضْرِبُ هَامَ الدَّارِعِينَ وَنَنْتَمِي إِلَى حَسَبٍ مِنْ جِذْمِ غَسَّانِ قَاهِرِ
فَلَوْلَا حَيَاءُ اللَّهِ قُلْنَا تَكْرُمًا عَلَى النَّاسِ بِالْحَيْفَيْنِ هَلْ مِنْ مُنَافِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى وَأَمْوَاتُنَا مِنْ خَيْرٍ أَهْلِ الْمَقَابِرِ
فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتَ لِأَمْرٍ مَا حَالَ حَوْلًا، وَإِنِّي قَدْ
قُلْتُ شِعْرًا فَاسْمَعُهُ، فَقَالَ هَاتِ، فَقَالَ:

أَتَيْنَاكَ كَيْمًا يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا إِذَا خَالَفُونَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَإِنَّا رُؤُوسُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَعْشَرٍ وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ
وَإِنَّ لَنَا الْمَرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ تَكُونُ بَنَجْدٍ أَوْ بَأَرْضِ التَّهَائِمِ
" فَقَالَ ﷺ: أَجِبْهُ يَا حَسَّانُ. فَقَالَ:

بَنُو دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْرَكُمْ يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ

هَبَلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ لَنَا حَوْلٌ مَا بَيْنَ ظَيْرٍ وَخَادِمٍ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ كُنْتُ غَنِيًّا يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْكَ مَا قَدْ
ظَنَنْتَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسَوْهُ. قَالَ: فَكَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ
حَسَّانٍ، ثُمَّ رَجَعَ حَسَّانُ إِلَى شِعْرِهِ، فَقَالَ:

وَأَفْضَلُ مَا نِلْتُمْ مِنَ الْمُجْدِ وَالْعُلَا رَدَا فُتْنَا عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نَدَاءً وَأَسْلِمُوا وَلَا تَفْخَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ بِدَارِمٍ
وِإِلَّا وَرَبَّ الْبَيْتِ مَالَتْ أَكْفُنَا عَلَى هَامِكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
فَقَامَ الْأَقْرَعُ وَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا الْمُؤْتَى لَهُ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْأَمْرُ؛ تَكَلَّمَ
خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أَحْسَنَ قَوْلًا، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ
أَحْسَنَ شِعْرًا. ثُمَّ دَنَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ
رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: مَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا. ثُمَّ أَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ وَكَسَاهُمْ. وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ فِي رِكَابِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ، وَكَانَ قَيْسُ
بْنُ عَاصِمٍ يَبْغِضُهُ لِحِدَاثَةِ سِنِّهِ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ

الْقَوْمَ، فَازْدَرَىٰ بِهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﴿لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: وَاللَّهِ لَا أَرْفَعُ أَبَدًا عَلَىٰ صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾.

وعن ابن الزبير، رضي الله عنه، أنه قال: مَا حَدَّثَ عُمَرُ رضي الله عنه رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَمِعَ كَلَامَهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ مِنْ شِدَّةِ خَفْضِ صَوْتِهِ. وكان ثابت بن قيس في أذنيه صَمَمٌ، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كَلَّمَ إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته، فلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم، يعني تبطل حسناتكم، جعل ثابت يبكي على قارعة الطريق، فمرَّ به عاصم بن عدي فقال: مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟! فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ، فَأَخَافُ أَنْ تُحْبَطَ

عَمَلِي وَأَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَمَضَى عَاصِمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: اذْهَبْ وَادْعُهُ لِي. فَدَعَاهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: أَنَا صَيِّتٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَأَخَافُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ، فَقَالَ ﷺ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً وَتَمُوتَ شَهِيداً وَيُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: رَضِيتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَا أَرْفَعُ صَوْتِي بَعْدَهَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَمْرٍ وَأَمْثَالِهِمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ...﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤٦١).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له. قال أبو هريرة: لما نزلت: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السرار. وذكر سنيد قال: حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال:

لما نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السرار. وقال عبد الله بن الزبير: لما نزلت: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ ما حدث عمر عند النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه، مما يخفض؛ فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. قال الفراء: أي أخلصها للتقوى. وقال الأخفش: أي اختصها للتقوى. وقال ابن عباس: ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾: طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر رضي الله عنه: أذهب عن قلوبهم الشهوات. والامتحان: افتعال، من مَحَنْتُ الأديمَ مَحْنًا حتى أوسعته. فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها؛ كقولك: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كل شيء جَهِدَته فقد محنته. وأنشد:

أَتَ رَذَايَا بِأَدِيَا كَلَاهَا قَدْ مَحَنَتْ وَاضْطَرَبَتْ أَطَاهَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مع تحيات



Blx.abook@gmail.com

